دي. اتش. لورانس

الخُنْفُسَاء المُنَقَّطَة

ترجمة: زكي الأسطة

الخُنْفُسَاء المُنَقَّطَة

(هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرواية The LADYBIRD)

* الخنفساء المنقطة
* دي. اتش. لورانس
* ترجمة: زكي الأسطة

* الطبعة الأولى 1995
* الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص . ب 1018 ـ هاتف 422339

مدخل إلى عالم لورانس*

قَلّما نجد كاتباً عاش حياة زاخرة بالحيوية والنشاط ، على قِصَرِها (44 عاماً)، كالحياة التي عاشها ديفيد هربرت لورانس (والذي يُسمَّى اختصاراً: دي إتش لورانس). لقد ترك هذا الكاتب لنا كمية مذهلة ومتنوعة من الأعمال الأدبية من روايات وقصص وقصائدَ ومسرحيات ومقالات وكتب رحلات وترجمات ورسائلَ، حتى ليمكننا القول أنه كان يكتب، لا سيّما في السنوات الأخيرة من عمرِه، بأقصى ما تسمح به الطاقة البشرية، وهو المريض المُبْتَلَى بداء السِّلّ، والذي كان يَغذُّ السّيْرَ حَثيثاً إلى مملكة الموت.

وَقَلَّمَا نجد كاتباً تناوشته سهام الإحباطات، كما تناوشت لورانس. فمنذ يفاعة عوده فتح عينيه على بيت تعصف به المشاجرات بين أبٍ، كان عامل منجم، وبين أمٍّ، كانت معلّمةَ مدرسةٍ سابقاً وتنحدر من طبقة

(*) اعتمدت في صياغة هذه المقدمة على المراجع التالية:

(1) تفاحة آدم: دراسة في النظرة الفلسفية عند د.هـ. لورانس، للناقد حنا عبود. دار المسيرة. الطبعة الأولى 1980، وهو كتاب جدير بالقراءة.

(2)York NOtes On "Women In Love". Niel Mcewan. Longman York Press. Librairie Du Liban I 98 I.

(3)The Essentials Of English Literature. Vol. 2- Grebanier Barrons Educatonal Series Inc I 948.

اجتماعية متوسطة ولكنها أعلى مرتبة من طبقة عمال المناجم. كانت هذه المعلمة السابقة، وهي والدة لورانس، قد تزوجت عامل المنجم، والد لورانس، عن حب، وكان الأمل يحدوها في أن ترقى به فوق مستوى عمال المناجم، ولكن خشونة زوجها ومعاقرته الخمر بثَّا خيبة الأمل المريرة في حناياها، واستحالت حياتها معه إلى جحيم استعرَ بشواظ اليأس والكراهية والاشمئزاز والمشاحنات الزوجية.

في هذه الأجواء العاصفة أبصر لورانس النور لأول مرة، عام 1885 وكان ترتيبه الرابع بين خمسة أطفال، ولم يلبث أن توفي أخوه الأكبر، إرنست، فالتفتت أمه إليه، واختصَّتْهُ، دون بقية إخوته، بحبٍّ جنونيٍّ مسعورٍ كان أقرب إلى الأوديبية منه إلى حب الأم لابنها. وما فتيء داءُ ذات الرئة أنْ مَدَّ أصابعه ليعبث بإهاب لورانس الغَضّ. ثم أنشب داءُ السِّلِّ أظافرَه في حنَايا هذا الفتى ذي الحظ العاثر حتى وضع حداً لحياته المهنية كمُدَرِّس. كان ذلك في عام 1912 بعد أربع سنوات فقط من حصوله على شهادة التدريس من الكلية الجامعية في نوتنغهام. في عام 1910 فسخ خطبته مع جيسي تشامبرز، وكان قد خطبها قبل ست سنوات من ذلك التاريخ، ومن ثم خطب لوي باروز، ولكنَّ هذه الخطبة آلت إلى الفشل أيضاً، إذْ لم يلبث أن فَرَّ مع فريدا ويكلي، وهي زوجة أستاذ جامعي في كلية نوتنغهام، إلى ألمانيا عام 1912 . كانت فريدا هذه تنحدر من عائلة ألمانية أرستقراطية تُدعى « فون ريختوفِنْز»، وقد تركت زوجها وأطفالها وفَرَّتْ مع لورانس إلى ألمانيا ولم يعودا إلى انكلترا إلاَّ في عام 1914 وحصلت فريدا عندئذ على الطلاق من زوجها وأصبح في مقدورها الآن أن تتزوج لورانس. ولكنّ الإحباطات راحت تَرِيشُ

سهامها من جديد وتطلقهاباتجاه لورانس، فقد نشبت الحرب العالمية الأولى (1914– 1918) التي تركت أثراً بالغاً على نفسية لورانس. راح ينتقل مع فريدا من مكان إلى آخر في إنكلترا، وهو الذي كان يعيش على كتاباته، بحثاً عن القوت، ولم يكن صالحاً للخدمة العسكرية بسبب داء السل. أمسك الفقر بتلابيبه، وعضَّهُ الجوع مراراً. والأنكى من ذلك أن سلطات الأمن راحت تُحْكِمُ عليه الرقابة، وتضيق عليه الخناق لكون زوجته، فريدا، ألمانية الأصل.

ولم يلبث أنْ طُرِدَ من كورنوول عام 1917 للاشتباه بكونه جاسوساً، وهي تهمة كان منها بُراء. وفي العام نفسه رفضت الولايات المتحدة طلبه للحصول على جواز سفر. وقبل ذلك التاريخ كانت روايته «قوس قزح» قد حُظِّرَتْ، ولم يجد ناشراً واحداً يجازف وينشر له روايته الأخرى « نساء عاشقات ». وقبيل أن تضع الحرب أوزارها كان لورانس وزوجته قد سافرا خارج البلاد متنقّليْنِ إلى فلورنسا وصقلية وسيلان واستراليا والمكسيك.

كان لورانس يأمل أن يؤسس نوعاً جديداً من الجماعة سماه «رنانيم»، وهو أشبه ما يكون بفردوس أرضي، جعل العنقاء شعاراً له. ولكنَّ هذا المشروع لم يَرُقْ لأصدقائه على ما يبدو فنفروا منه، وانفضُّوا من حوله، واحداً إثْرَ الآخر، في وقت كان فيه أَعْوَزَ ما يكون إلى مؤازرتهم له، ولو نفسياً على الأقل. وحده الروائي الشهير فورستر وقف إلى جانبه وصاح بأعلى صوته: «إنَّ لورانس أعظمُ روائي في القرن العشرين ». ولكنَّ صرخة فورستر ذهبت أدراج الرياح على ما يبدو، كما آب مشروع لورانس بالفشل. ولم يَفُتَّ ذلك من عضده، ولم يجعلِ اليأسَ يتطرّق إلى نفسه. ما كان سفره

وترحاله إلاَّ بحثاً دؤوباً عن نمط للحياة يكون أكثر مُوافَقَةً لمتطلبات الإنسانية مما تقدمه الحضارة الغربية الصناعية. كانت الحضارة الصناعية في نظره غَزْواً لابد من صَدِّهِ وَدَحْرِه. رحل إلى استراليا ليدرس «البُشْمَان»، وهم قوم من المترحلين القَنَّاصة يعيشون في الغابات وبين أحضان الطبيعة. ونزح إلى المكسيك وأقام فيها ليدرس الهنود الحمر. كان كل ذلك بحثاً عن حضارة بدائيةٍ يعتبرُها البديلَ عن الحضارة الصناعية التي استعبدت الإنسان بدلاً من أنْ يستعبدها.

وأجبره المرض على العودة إلى إنكلترا، ثم لم يلبث أن رحل عنها إلى ألمانيا فإيطاليا ففرنسا.

في عام 1928 حُظِّرَتْ في إنكلترا آخرُ رواياته « عشيق الليدي تشاترلي » لجرأتها الفاضحة، فنشرها في فلورنسا. وفي العام نفسه استولت السلطات البريدية على مخطوطة « أزهار الثالوث »، وهي من مجموعاته الشعرية. وفي عام 1929 أي قبل موته بعام واحد، صودرت رسوماتُه.

بهذا الصمود الفذّ واجه لورانس رياح الاقتلاع العواتي. والأغرب من ذلك أنه استطاع، وسط هذه الأجواء، أن يرسي جذوره عميقاً في الرواية الانكليزية إلى حدٍّ جعل ناقداً إنكليزياً مثل وولتر آلن يعتبره الكاتب الانكليزيَّ الوحيد الذي يقف ندّاً للكاتب الانكليزي الشهير جيمس جويس ذي الأصل الايرلندي.

لقد ا تبَنَّ لورانس، في الواقع، اتّجاهاً في الرواية يكاد يَنْفَردُ به. ولم يكن هذ الاتجاه أسلوباً أدبياً، بالمعنى الجمالي للكلمة، بقدر ما كان نهجاً روائياً. بعبارة أوضح: كان لورانس يصب جُلَّ اهتمامه على

الفكرة، دون الأسلوب، فيتعقبها بأناة وصبر، ويناور للظفر بها، وتقديمها للقارىء. وكانت فكرة الصدق الجنسي، أي صدق الرجل إزاء رجولته، وصدق المرأة إزاء أنوثتها، هي الفكرة الآسرة التي ملكت زمام نظرته، واستحوذت على مخيلته.

لقد كتب مرة يقول لصديقه إرنست كولنجز:

«إنَّ ديني العظيم هو الإيمان بالدم والجسد، واعتباره أكثر حكمة من العقل. فنحن قد نخطىء في عقولنا، لكنَّ ما يُحسُّه دمنا وما يؤمن به ويقوله صحيح دائماً. وكل ما أريده هو إطاعة دمي مباشرة دون تدخل سخيف من قبل العقل أو الخلق أو ما شابه ذلك».

إنها إطاعة نداء الدم، والإصغاء إلى «وعي الدم» كما يسميه لورانس نفسه. وهنا وجه التشابه الكبير بينه وبين العالم النفسي الأشهر سيغموند فرويد (1856- 1939) الذي أولى الغرائز جُلَّ اهتمامه. لقد كان لورانس «فرويديا» إلى حدٍّ ما في طرحه، ولكنْ علينا أنْ نتوخّى جانب الحذر، وأن نلتزم جانب الأمانة العلمية، عند التطرق إلى هذه النقطة، كيلا نقع في مَغَبَّةِ اعتبار لورانس تلميذاً لفرويد، أو كوكباً في فلكه، من ناحية، وكيلا نغبن أ يّاً من الرجلين دوره، من الناحية الثانية.

ثمة ترابط خفي بين الاثنين، وثمة تشابه واضح للعيان؛ فلورانس وفرويد يشتركان في إعلاء شأن الغريزة، مع فارق ينطوي على شيء من الأهمية، يجدر بنا أنْ ننتبه إليه، وهو أنَّ «وعي الدم» الذي طرحه لورانس لا يقتصر على الغريزة الجنسية التي ذهب فرويد إلى أنها الدافع الكامن وراء كل النشاطات، بل هو أكثر شمولاً. بعبارة أخرى: ليست

العلاقة الجنسية إلاّ جُزْءاً من «وعي الدم»، وليست وعي الدم كله.

هنا يكمن التشابه الصارخ بين الإثنين، وهنا يكمن الاختلاف الخفي بينهما.

وفي هذه النقطة بالذات، تتداخل حدود مملكتي الرجلين، أما فيما عداها، فلكل منهما مملكته وحدوده في علم النفس.

أما على الصعيد الروائي، فقد سئم لورانس من التقاليد والأعراف التي كانت تصهل في روايات القرن التاسع عشر، وأراد أن يلوي أعِنَّتَها. كانت الرغبة في خلق بداية جديدة في الرواية بين معاصريه تعتمل بين جوانحه، وتداعب مخيلته. كان يشعر أنَّ في إمكان الروايةأن تكون أكثر خصوصية، وأن في مقدور اللغة أن تصف وبالتفصيل الخبرات الذاتية للشعور والعاطفة، كما في مقدورها أن ترصد حركات العاطفة «من الداخل ». ولم يكن الوحيد في هذا المضمار، فقد كان الروائي الفرنسي مارسيل بروست (1871– 1922)، والروائي الانكليزيّ، ذو الأصل الايرلنديّ، جيمس جويس (1882– 1941) يشاطرانه هذا التفكير، إذْ نشر الأول روايته الشهيرة «البحث عن الزمن الضائع »، الجزء الأول عام 1913 وهي سيرة ذاتية إلى حَدٍّ كبير، وفي العام نفسه نشر لورانس روايته الشهيرة «أبناء وعشاق» والتي هي صورة تقترب من الأصل في حياة لورانس وعائلته، وباعتراف لورانس نفسه. وفي تلك الفترة بالذات كان جويس يعمل جاهداً في روايته الشهيرة «صورة الفنان في شبابه» (نشرها عام 1916) والفنان المقصود في هذا العنوان هو جويس نفسه. وتابع بروست وجويس توغلهما في مضمار النزعة الذاتية فكتب جويس فيما بعد

روايته «يقظة فينيغان» (نشرها عام 1939)، كانت ذات لغة خصوصية، كما طور روائيون آخرون، مثل فيرجينيا وولف (1882- 1941) ووليام فوكنر (1897- 1962)، تقنيةً في كتابة الروايةِ تكونتْ من تيّار الأفكار الآني الذي يمرُّ في المخيلة الشخصية، وهو ما يُعْرَفُ بطريقة «تيار الوعي» أو «دفق الشعور» .

وعلى الرغم من أنَّ لورانس لم يتطرف روائياً كهؤلاء، إلاَّ أنه بقي ذا نبرة خاصة، وكانت رواياته أقرب ما تكون إلى تقرير ثابت عن خبراته الشخصية.

وقد أُعْجِبَ لورانس بالروائي الانكليزي، ذي الأصل البولوني، جوزيف كونراد (1857- 1924)، إلاَّ أنَّ إعجابه به كان مشوباً بالتحفظ. ولم يَرُقْ له انشغالُ الألماني توماس مان (1875- 1955) والفرنسي غوستاف فلوبير (1821- 1880) بالجمال الشكلي، كما لم يستسغ أناقة هنري جيمس (1843- 1916) المبتكرة في الرواية فعمل على تفاديها.

ولم يحظ الروائيان الروسيان ليو تولستوي (1828- 1910) وفيودور دوستويفسكي (1821- 1881) باهتمام جَدّيٍّ من لورانس، على الرغم من إعجابه الكبير برواية «آناً كارنينا» التي نشرها تولستوي عام 1876 .

لقد جعل لورانس من غرائزه نبراساً يستضيء به، لذا لم يستَعِرْ أجواءَ الأدباء الآخرين.

لقد كانت حياته وأعماله ثورة على قيم ومبادىء القرن التاسع عشر، ولَشَدَّ ما كان يمقت إنكلترا ذلك القرن، إنكلترا الملكة فكتوريا

(التي استلمت زمام الحكم من عام 1837 وحتى عام 1901)، فقد كان يشعر أن مجتمع تلك الفترة اتخذ التصنع أسلوباً وسلوكاً، فَغَدَا فاقدَ الحياة، خِلْواً من الأحاسيس الصادقة. لذا راح لورانس في كتاباته ينسف الحدود الكائنة بين الطبقات الاجتماعية، لأن هذه الحدود كانت تحول دون قيام علاقات حقيقية حيّة بين الناس، وبالتالي كانت تقف حجر عثرة في طريق الصدق الجنسي.

لقد رسمت الحرب العالمية الأولى (1914– 1918) نهاية العصر الفكتوريّ، وثبت أنَّ لورانس كان على صواب. لذا تطور نجاحه بسرعة بعد هذا الحدث الذي هَزَّ العالم.

وعندما خمدت آخرُ خلجةِ من خلجاتِ جسد لورانس المتعب، الذي هَدَّ كيانَه المرضُ، في الثاني من آذار عام1930 في مَصَحٍّ في فينيس (فرنسا) ، فَقَدَتْ إنكلترا واحداً من أعظم أدبائها المعاصرين .

الخُنْفُساء المُنَقَّطَة

ما أكثر السيوف التي تَلَقَّتْها السيدة بيفيردج في قلبها المطعون!!..

ومع ذلك، كان يبدو أنّ ثمة مكاناً على نحو دائم لسيفٍ آخرَ منذ أن عَقَدَتِ العزَم على ألاّ يموت قلبها المجبول من الرحمة والحنان. ولو لم تكن قد وَطَّنَتْ نفسها على هذا العزم، لماتت هي نفسها، ربما، من الألم المبرِّح في عامي 1916و 1917 ، عندما قُتِلَ ولداها، وأخوها، ولاح أن الموت كان يجزُّ بضربات مِنْجَلِهِ العريضةِ في غمار عائلتها.

ولكنْ، لننسَ ذلك.

كانت السيدة بيفيردج تحب الإنسانية، ولسوف تواصل هذا الحب أيّاً كانت النتائج. بل إنّها وبالمعنى الإنساني للكلمة، لتحب أعداءها، لا المجرمين منهم الذين ارتكبوا الفظائع، بل الذين كانوا أعداءها دون أنْ يُتَاحَ لهم خيار في ذلك.

وما كان لكراهية عامة أن تعصف بها.

كان أحدهم قد سماها روح إنكلترا. ولم تجانب هذه التسمية جادَّة الصواب، على الرغم من كونها نصف إيرلندية. بَيْدَ أنها كانت تنحدر من عائلة أرستقراطية عريقة موالية اشتهرت برجالها اللامعين.

وكان لها، للسيدة بيفيردج، من التأثير على طابع السياسية

الإنكليزية لعدة سنوات ما لم يكن لأيٍّ فردٍ حَيّ. كانت الصديقةَ الأثيرةَ للزعماء الحقيقيين في مجلس اللوردات وفي مجلس الوزراء، وكانت على قناعة من أن الرجال يجب أن يعملوا ما داموا يتنشقون منها، كما يتنشقون من وردة الحياة، أريج الحقيقة والحب الحقيقي النقي. ولم يكن ثمة أية ريبة فيما يتعلق بروحها.

ما كانت لتخفض أبداً رايتها الحريرية الرقيقة. فعلى سبيل المثال، وطوال كروب الحرب، لم تنس قط الأسرى من الأعداء. كانت قد عقدت عزمها على بذل قصارى جهدها في سبيلهم.

كانت خلال سنوات الحرب الأولى لا تزال تتمتع بالنفوذ، ولكنه لم يلبث أن انزلق من يديها وأيدي أمثالها في السنوات الأخيرة من الحرب، واكتشفت أنه لم يعد في وسعها القيام بأيٍّ شيء بعد الآن: لا شيء على وجه التقريب. ثم بدا وكأن السيوف الكثيرة قد نفذت إلى قلب «الأم دولوروسا» الصغيرة هذه، والتي لا تعرف إلى الاستسلام سبيلاً. راح الجيل الجديد يسخر منها. كانت أرستقراطية صغيرة بالية وعتيقة الطراز، أما قاعة استقبالها فقد عفا عنها الدهر.

ولكننا نستبق الأمور.

كان عاما 1916و 1917 هما العامين اللذين ماتت فيهما روح إنكلترا القديمة وإلى الأبد. بَيْدَ أن السيدة بيفيردج واصلت نضالها، وراحت تُمْنَى بالهزائم.

كان ذلك في شتاء عام 1917 أو في أواخر الخريف. كان المرض قد أقعدها أسبوعين كسيرة القلب بعد أن صعقها وعلى نحو مريع موتُ أصغرِ أولادها. وشعرت أنه كان يتحتم عليها أن تستسلم وتموت

فحسب. وعندئذ تذكرت كثرة الآخرين الذين أقعدهم الألم المبرِّح.

لذا نهضت وهي ترتعش ببنية ضعيفة لتزور مستشفى قرب لندن كان ينزل فيه المرضى والجرحى من الأعداء. كانت الكونتيسة بيفيردج لا تزال امرأة ذات امتيازات.

كان المجتمع قد بدأ يسخر من هذه العصفورة الصغيرة المُتْعَبَة ذات الاستقامة والجمالية اللتين عفا عنهما الدهر، لكنَّ أفراده ما كانوا ليجرؤون على التفكير فيها بسوء.

طلبت سيارة وذهبت بمفردها. كان زوجها، الإيرل(*)، قد أخذ كآبته إلى اسكوتلندا. لذا ترجلت السيدة بيفيردج ذات صباح مشمس باهت من أيام تشرين الثاني عند المستشفى في «هيرست بليس». عرفها الحارس وحياها عندما مرت به. آه، كانت معتادة على مثل هذا الاحترام العميق!.. والغريب أنها أحسّتْ وبمرارة كبيرة عندما أصبح الاحترام أقل عمقاً عما كان عليه.

لقد أحسّتْ بذلك، وكانت تلك هي بداية النهاية بالنسبة لها.

ودخلت المشرفة على المرضى إلى الجناح معها. ووا أسفاه، كانت الأَسِرَّةُ ملأى برمّتها، بل كان الرجال حتى يستلقون على فُرُشٍ من قش على الأرض. كان ثمة بؤس ووحشة يائسان يحتشدان في المكان، حتى لكأنه لم يكن ثمة من يود أن يصدر صوتاً، أو ينبس ببنت شفة.

كان الكثيرون من الرجال منهوكي القوي وقد طالت لحاهم،

(*) الإيرل: لقب انكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت. المترجم.

وكان أحدهم يتحدث في اهتياج وعلى نحو متشنج باللهجة السكسونية(*).

ونفذت هذه اللهجة إلى قلب السيدة بيفيردج. كانت قد تلقَّتْ تعليمها في «درسدن»(**) وكانت قد عقدت الكثير من الصداقات الحميمة في تلك المدينة. وكان أطفالها أيضاً قد تلقوا تعليمهم هناك. سمعت اللهجة السكسونية وتألمت.

كانت امرأة ضئيلة القوام، ضعيفة البنية، وأشبه ما تكون بعصفورة، كانت أنيقة ولكن بتلك المسحة من الجوارب الزرق التي تميزت بها التسعينات من القرن الماضي، والتي لايمكن للمرء أن يخطئها. راحت تذرع المكان مهتاجة من سرير إلى آخر، وهي تتحدث بلغة ألمانية تامة ولكن بنزر يسير من الأداء الإنكليزيّ، وكانت تسأل على الدوام فيما إذا كان ثمة ما تستطيع أن تؤديه. كان معظم الرجال من الضباط والسادة. ولقد طرحوا بعض المطالب، وسجلتها في دفتر. كان وجهها الطويل الشاحب، المُرْهَق إلى حد ما، وإيماءاتها العصبية القليلة يوحيان بالثقة نوعاً ما.

كان ثمة رجل وحيد يستلقي في هدوء تام وقد أسبل عينيه. كان ذا لحية سوداء، ووجه صغير وشاحب إلى حد ما. ربما كان قد مات. نظرت السيدة بيفيردج إليه على نحو جدّيٍّ، وارتسم الخوف على وجهها. قالت في اهتياج:

(*) السكسون: شعب جرماني فتح انكلترا مع «الآنجلز» و «الجوت» في القرن الخامس الميلادي. المترجم.
(**) درسدن: مدينة في ألمانيا. المترجم.

– مَنْ؟؟ الكونت دايونيس!.؟هل أنت نائم؟؟؟

كان هذا الرجل هو الكونت جوهان دايونيس بسانيك، وكان بوهيميا(*). كانت قد عرفته عندما كان صبياً، إلاّ أنه وفي ربيع عام 1914 أقام هو وزوجته مع السيدة بيفيردج في منزلها الريفي الكائن في «ليسترشاير».

واتسعت عيناه: كانتا كبيرتين سوداوين ذاهلتين بأهداب سُودٍ مُقَوَّسة. كان رجلاً ضئيل القوام كصبيٍّ، وكان وجهه أيضاً صغيراً بعض الشيء. ولكنَّ تقاطيعه كانت جميلة برمتها، وكأنها أُضْرِمَتْ بِطَاقةٍ ذَكَرِيَّةٍ مُتَوقِّدة. كانت عجينة بشرته الداكنة والمائلة إلى الاصفرار تبدو ميتة الآن، وكان حاجباه السوداوان الجميلان يبدوان وكأنهما مسبلان على وجه شخص ميت. لكنَّ عينيه، على أية حال، كانتا على قيد الحياة: إلاّ أنهما كانتا على قيد الحياة فحسب، لا تريان ولا تعرفان.

قالت السيدة بيفيردج وهي تنحني نحو الأمام فوق السرير:

– أنت تعرفني أيها الكونت دايونيس. أنت تعرفني، أليس كذلك؟؟

لم يكن ثمة رد لفترة من الوقت . ثم استجمعت العينان السوداوان نظرةَ إدراكٍ، لاح بعدها شبح ابتسامة مهذبة. قال:

– السيدة بيفيردج.

(*) بوهيمي: نسبة إلى بوهيميا في تشيكوسلوفاكيا. المترجم.

كانت الشفتان قد شَكَّلَتا الكلمتين، إذْ لم يكن ثمة صوت عملياً.

- إنني في غاية السرور لأنك استعطت أن تميزني. وأنا في غاية الأسف لأنك جريح. أنا في غاية الأسف.

راحت العينان السوداوان تراقبانها من ذلك الموت النائي المريع دون أن تتغيرا. قالت وهي تتحدث بالألمانية دائماً:

- أليس هنالك ما أستطيع أن أفعله من أجلك؟؟لا شيء أبداً؟؟

وبعد فترة من الوقت، ومن مسافة بعيدة، تناهتِ الإجابةُ من عينيه نظرةَ إرهاقٍ ورفضٍ ورغبةٍ في أن يُتْرَكَ بمفرده. لم يكن في وسعه أن يجهد نفسه داخلَ الوعي. وانسدل جفناه. قالت:

- أنا في غاية الأسف. إذا كان هنالك أيّ شيء أستطيع أن أقوم به...

وانفتحت العينان ثانية، وراحتا تنظران إليها. ولاح أخيراً أنه يسمع، وبدا وكأن عينيه قد قامتا بآخر إيماءةِ انحناءةٍ مُرْهَقَة مُهَذَّبة. ثم انسدل جفناه مرة أخرى ببطء.

وشعرت السيدة يفيردج المسكينة بطعنة أخرى من سيف الحزن في قلبها وهي تقف وتخفض بصرها إلى الوجه الساكن واللحية الدقيقة السوداء. كانت الشعرات السود تخرج من جلده رفيعة ودقيقة ولم تكن متقاربة. كان ذا وجه غريب، داكن، بدائيّ، ضئيل، بأنف صغير ودقيق: ولم يكن أنفاً آرياً(*) بالتأكيد.

(*) آريّ: نسبةً إلى الجماعات القبتاريخية الناطقة بالآرية. المترجم.

وكان على وشك أن يموت.

كان قد أصيب برصاصة اخترقت الجزء العُلْويَّ من صدره، وكانت رصاصة أخرى قد كسرت أحد أضلاعه.

وكان قد مضى على وجوده في المستشفى خمسة أيام.

طلبت السيدة بيفيردج من المشرفة على المرضى أن تتصل بها إذا حدث أيُّ شيء. ثم رحلت مُحْزَنَة. وبدلاً من الذهاب إلى منزل بيفيردج، ذهبت إلى شقة ابنتها الكائنة قرب الحديقة، حديقة «هايد بارك». كانت السيدة دافني فقيرة، فقد تزوجت عُضواً في مجلس العموم كانَ ابناً لأحد أشهر السياسيين في إنكلترا، لكنه كان رجلاً بلا مال. وكان الإيرل بيفيردج قد بَدَّدَ معظم الثروة الكبيرة التي آلت إليه، فلم تعد الابنة تملك إلاّ النّزر اليسير نسبياً.

أحست السيدة بيفيردج بالعذاب وهي تدخل الرواق الضيق المفضي إلى الشقة القبيحة إلى حدٍّ ما. كانت السيدة دافني تجلس قرب المدفأة الكهربائية في غرفة الاستقبال الصغيرة الصفراء، وهي تتحدث مع زائرة. ونهضت فوراً عندما رأت أمها ذات البنية الضئيلة.

– عجباً أماه!.. هل كان يتحتم عليك أن تخرجي؟؟ أنا واثقة أنه لم يكن يتحتم عليك ذلك.

– أجل يا حبيبتي دافني. طبعاً كان يتحتم عليَّ أن أخرج.

– كيف حالك؟؟

كان صوت الابنة بطيئاً، رنّاناً، وقائياً وحزيناً. كانت السيدة دافني طويلة القامة، في الخامسة والعشرين من عمرها فحسب. كانت إحدى

الحسناوات عندما اندلعت الحرب، وكان والدها يأمل أن تحظى بزوج رائع. كانت ، في الواقع، قد تزوجت الشهرة، لكنْ دون مال. أما الآن فقد سبَّبَ لها الحزنُ والألمُ والعاطفةُ المخذولة أذىً بالغاً. كان زوجها قد فُقِدَ في الشرق. وكان طفلها قد وُلِدَ ميتاً. وكان أخواها الحبيبان قد ماتا. وكانت مريضة،مريضة دائماً.

كانت فتاة طويلة جميلة التكوين، وكان لها قامة والدها الجميلة. وكان كتفاها لايزالان منتصبين. ولكن كم كانت حنجرتها البيضاء نحيلة!.. كانت ترتدي فستاناً أسودَ بسيطاً، مُطَرَّزاً بصوف مُلَوَّنٍ حول قسمه العُلويِّ، ويشدُّه حزام رخو مُلَوَّنٌ: وباستثناء ذلك، لم يكن ثمة زخارفُ أخرى.

كان وجهها جميلاً وأشقرَ، ببشرة ناعمة غريبة ووجنتين قرمزيتين رقيقتين. كان شعرها ناعماً وغزيراً، ذا لون ذهبي باهت جميل بشقرة الرماد. وكان شعرها وبشرتها موضع عناية تامة بحيث كانا يبدوان اصطناعيين تقريباً كزهرة نبتت في دفيئة(*).

ولكنَّ جمالها مع الأسف كان موضعَ إخفاق. كانت مهدَّدَةً بالسّلّ الرئويِّ، وكانت بالغة النحول.

كانت عيناها أشدَّ أقسام جسمها حزناً، بحافّتين مُحْمَرَّتينْ على نحو طفيف، منهوكتي الأعصاب، بجفنين ثقيلين ممتلئين بالأوردة إلى درجةٍ كانا يبدوان معها وكأنهما لا يريدان أن يبقيا مفتوحين.

---

* دفيئة: مستنبت زجاجي عالي الحرارة وبخاصة لإنتاج النباتات الاستوائية. المترجم.

كانت العينان نفساهما كبيرتين، وبلونٍ أخضرَ مُزْرَقٍ جميل، ولكنهما ممتلئتان، فاترتا الهمة، ورماديتان مُزْرَقّتان على وجه التقريب.

وكانت بوقفتها على هذا النحو تملأ القلب بالرماد، فتاة طويلة، جميلة التكوين تخفض بصرها باهتمام حنون نحو أمها. ولم يكن يتحتم فعلاً الإشفاق على الأم الصغيرة المحزنة، والرائعة بطريقتها، بسبب حزنها، فقد كانت حياتها تكمن في أحزانها، وفي جهودها المبذولة لصالح أحزان الآخرين. أمّا دافني فلم تولد من أجل الأسى والحزن. كانت بجسدها الرائع، وساقيها الجميلتين الطويلتين القويتين «آرتميسَ»(*) أو«أطلانتا»(**) أكثر مما كانت دافني. كان ثمة اتّساعٌ في الجبين، وفي الذقن حتى، يفصح عن طبيعة قوية طائشة، وكانت نظرة عينيها الذاهلة الغريبة تَنمُّ عن طاقة متوحشة مكبوحة في داخلها.

وكان ذلك ما يوجعها: طاقتها المتوحشة الخاصة. كانت قد ورثتها عن أبيها وسلالة أبيها المتهورة. كان منصب الإيرل قد بدأ بجنديّ مشاغب متهورٍ من جنود الحدود، وكان هذا هو الدم الذي سرى في السلالة. وواحسرتاه، ماذا في وسع المرء أن يفعل إزاء ذلك؟؟

كانت دافني قد اقترنت بزوجٍ فاتنٍ، زوج فاتن بِحَقٍّ، في حين أنها

(*) آرتميس: إلهة القمر والقَنَص عند الإغريق. المترجم.

(**) أطلانتا: صيّادة، في الأسطورة الإغريقية، كانت تدعو طالبَ يدها إلى سباقٍ في العَدْو، وفي رواية أخرى إلى سباق في مضمار الخيل، فإذا لم يسبقها كانت عقوبته الموت. إلاّ أنَّ ميلانيون استطاع أنْ يسبقَها بعد أنْ رمى في طريقها ثلاثَ تفاحات ذهبيات، كانت أفروديت، إلهة الحب والجمال، قد أعطته إيّاها، مما جعل أطلانتا تتوقف لكي تلتقطها فسبقها ميلانيون وتزوجها. المترجم.

كانت في حاجة إلى زوج متهور. بَيْدَ أنّها، في عقلها الواعي، كانت تكره جميع المتهورين: فقد أنشأتها أمها على الإعجاب بالطيّبين فحسب.

لذا لم يكن في وسع عاطفتها الطائشة المعادية للخير أنْ تجد مخرجاً، وينبغي ألاّ تجد مخرجاً، على حد اعتقادها. وهذا ما كان يجعل دمها ينقلب ضدها، ويضرب على أعصابها، ويدمرها. لم يُسْقِمْها إلاّ الإحباط والغضب، مما جعل الأطباء يخشون السّل. وهناك على فمها العريض نوعاً ما كان يرتسم الإحباط والغضب والمرارة. وهناك كانت هذه الأشياء نفسها ترتسم في لَفّةِ عينيها الخضراوين المُزْرَقّتيْنْ نظرةً مائلةً شزراء: الغضب نفسه المنقلب على أعقابه خلسة. وقد حَمَّرَ هذا الغضب عينيها، وأرهق أعصابها. ومع ذلك كانت إرادتها الكاملةمُثَبَّتَةً في تبنّيها لعقيدة أمها، وفي إدانتها لأبيها الوسيم المتغطرس القاسي، الذي سبَّبَ الكثير من التعاسة في العائلة. أجل، كانت إرادتها مُثَبَّتَةً في التصميم على أنَّ الحياة يجب أنْ تكون لطيفةً وطيّبةً ومطبوعةً على حبِّ الخير. ولكنَّ دمهَا كان طائشاً، دمَ متهوِّرين. وكانت إرداتها هي الأقوى بين الاثنين، بَيْدَ أنَّ دمها كان ينتقم منها. لذا ها هو اليوم يعتمل بِقِوىً شديدةٍ، فهي مُحَطَّمَةٌ من الداخل.

سألت الأم قائلة:

– أليس لديك أنباء يا حبيبتي؟؟

– كلا. لقد تلقّى والد زوجي معلومات تفيد بأنَّ الأسرى الانكليز كانوا قد أُحضِرُوا إلى «هاسرن»، وأنَّ الأتراك سوف يُدْلون بالتفاصيل.

كان ثمة إشاعة انطلقت من بعض الأسرى العرب مفادها أنَّ بازل كان أحد الانكليز الذين جيء بهم جرحى.

– متى سمعتِ ذلك؟؟

– لقد زارتنا بريمروز هذا الصباح.

– إذن يمكننا أن ننعم بالأمل ياعزيزتي.

– أجل.

لم يكن ثمة ما هو أكثر فتوراً ومرارة من قضية الأمل عند دافني. كان قد أصبح لعنةً تقريباً بالنسبة لها. كانت تتمنى ألاَّ يكون ثمة حاجة لمثل هذا الشيء. ها، عذاب الأمل والأذى الذي يلحق بروح المرء. كالأرملة المزعجة التي تطلب استحقاقاتها بإلحاح. لماذا لا يكون الأمر برمَّتِهِ كارثة نظيفة تماماً ويتخلص المرء منه؟؟ كان تبديد الوقت في التردد مع اليأس أسوأ من اليأس. كانت قد تَوَخَّتِ الكثيرَ: آه، كانت قد تَوَخَّتِ الكثيرَ من أجل أخويها الحبيبين بمثل هذا الألم المبرِّح.

ومات الإثنان اللذان أحبتهما أيّما حب. كما مات معظم من أَفْعَمَها الأمل من أجلهم. وحده هذا الشك، فيما يتعلق بزوجها، كان لا يزال يعتمل في داخلها.

قالت الأم الصغيرة التي لم يَرْتَوِ غليلُها:

– هل تشعرين بتحسّن ياعزيزتي؟؟

وتناهت الإجابة الممتعضة:

– إنني أَفْضَلُ حالاً إلى حدٍّ ما.

– ولَبِلْلِكِ؟؟؟

– لم يتحسن.

وخيَّمَ صمتٌ قصير.

- هل ستأتين لتناول الغداء معي ياحبيبتي دافني؟؟

- كلا، ياأمي العزيزة. لقد وعدتُ بريمروز أن أتناول الغداء معها في «هووردز». ولكنني لست مضطرة إلى الذهاب قبل ربع ساعة. تفضلي بالجلوس.

وجلست المرأتان قرب المدفأة الكهربائية. وساد ذلك الصمت المرير القصير الذي لم تَدْرِ فيه أي منهما ماذا تقول. ثم أوقظت دافني نفسها لتنظر إلى أمها. قالت:

- هل أنت متأكدة من أنّكِ كنتِ في وضعٍ يسمحُ لك بالخروج؟؟ ما الذي دفعكِ إلى الخروج فجأة هكذا؟؟

- ذهبتُ إلى «هيرست بليس» يا عزيزتي. لقد فكّرْتُ في الرجال بعد تلك الطريقة التي تَحَدَّثَتْ بها الصحف.

قالت دافني بغضب لاذع حارق مُحَدَّد ودون أنْ تفكر:

- ولماذا تقرئين الصحف؟؟

ثم قالت بمزيد من الهدوء:

- حسناً. وهل تشعرين بتحسُّنٍ بعد ذهابك إلى هناك؟؟

- أناس كثيرون جداً يقاسون، بالإضافة إلينا يا عزيزتي.

- أعرف أنهم يقاسون. وهذا ما يزيد الأمر سوءاً. ما كان الأمر ليَهُمَّ لو كُنّا نحن فحسب مَنْ يقاسي. في أضعف الأحوال سيكون الأمر ذا أهمية، ولكنَّ المرء سوف يتحمل ذلك بسهولة أكبر، لو كان واحداً من حشد يعيش كله الحالة نفسها.

- وبعضهم حتى أسوأ حالاً ياعزيزتي.

- أوه، تماماً. وما هو أسوأ حالاً بالنسبة للجميع أسوأ حالاً بالنسبة لواحد.

- هل الأمر على ذلك النحو يا عزيزي ؟؟ لا تحاولي أن تنظري إلى الأمور بكآبة بالغة. إنني أشعر أنه لو كان في مقدوري أنْ أعطيَ، ولو قدراً ضئيلاً، من نفسي لمساعدة الآخرين - كما تعلمين - لَخَفَّفَ ذلك عني. أشعر أنَّ ما أستطيع أنْ أمنحه للرجال المستلقين هناك يا دافني هو ما أمنحه لِوَلَدَيّ. لا أستطيع أنْ أساعدهما الآن إلاّ عن طريق مساعدة الآخرين. ولكنني لا أزال أستطيع القيام بذلك يا فتاتي دافني.

ووضعت الأم يدها البيضاء الصغيرة في يد ابنتها الطويلة البيضاء الباردة. واغرورقت عينا دافني بالدموع، ورانت على فمها كشرةٌ متحجّرة خائفة. قالت:

- ما أروعَ أنْ تستطيعي الإحساس على ذلك النحو.

- ولكنك تحسّين بالطريقة نفسها يا حبيبتي. أعرف أنك تحسّين بذلك.

- كلا. لا أحس بذلك. كلما قابلتُ شخصاً يعاني من هذه الأشياء المريعة نفسها ازددتُ رغبة في نهاية العالم. وأرى تماماً أنَّ العالم لن ينتهي ...

- ولكنه سوف يتحسن يا عزيزتي. إنه هذه المرة كَمَرضٍ خطير، كمرضِ ذاتِ الرئة الرهيب الذي يمزّق صدرَ العالم.

- هل تعتقدين أنه سوف يتحسّن ؟؟ أنا لا أعتقد ذلك.

- سوف يتحسّن. ومن الضلال أنّ يعتقد عكس ذلك يا دافني. تذكّري ما كان الوضع عليه قبل ذلك حتى في أوروبا. آه يا دافني، يتحتم علينا أن نكون أوسعَ نَظَراً.

أجل، أعتقد أنه يتحتم علينا ذلك.

كانت الابنة تتحدث بسرعة، ومن شفتيها، وبنبرة رنّانةٍ رتيبة، بينما كانت الأم تتحدث من قبلها .

– ولقد وجدتُ يا دافني صديقاً قديماً بين الرجال الموجودين في «هيرست بليس».

– ومَنْ هو ؟؟

– الكونت الصغير دايونيس، هل تذكرينه ؟؟

– تماماً. ماذا أصابه ؟؟

– لقد جُرِحَ في صدره جرحاً بليغاً. إنه مريض جداً.

– هل تحدَّثْتِ معه ؟؟

– أجل. لقد ميَّزْتُهُ على الرغم من لحيته .

– لحيته ؟؟

– أجل. لحية سوداء. أعتقد أنه لم يستطع أنْ يحلقها. ومن الغريب أنه لا يزال على قيد الحياة. ياله من مسكين .

– وما وجه الغرابة في ذلك ؟ إنه ليس كهلاً. كم يبلغ من العمر؟؟

– بين الثلاثين وبين الأربعين. ولكنه مريض جداً، وجرحه بليغ يا دافني. وهو ضئيل البنية جداً. ضئيل جداً، وشاحب جداً.SMORTO(*) وتعرفين ماذا تعني هذه الكلمة بالإيطالية، إنها الطريقة التي يبدو بها ذو البشرة الداكنة. ثمة ما هو محزن جداً في الأمر.

(*) SMORTO : كلمة إيطالية تعني «شاحباً». المترجم.

سألت الإبنة قائلة:

- هل يبدو الآن ضئيلاً جداً، وغريباً؟؟

- كلا. إنه ليس غريباً. شيء من ذلك البُعْدِ النائي المريع الذي ينتابُ طفلاً مريضاً جدّاً لا يستطيع أنْ يُخبركِ عمَّا يؤلمه. ياللكونت دايونيس المسكين يا دافني. لم أكن أعرف يا عزيزتي أنَّ عينيه كانتا بالغتي السواد، وأنّ أهدابه متقوسة وطويلة إلى هذا الحد. لم أفكر قَطّ في أنه رجل جميل.

- ولا أنا. كنت أراه مضحكاً قليلاً فحسب لكونه رجلاً صغيراً أنيقاً.

- أجل. ومع ذلك فثمة الآن يا دافني شيءٌ ناءٍ وبطوليٌّ على نحو حزين في وجهه الداكن. شيء بدائي.

- ماذا قال لكِ؟؟

- لم يستطع التحدّثَ إليّ. كلُّ ما استطاعت شفتاه أن تفعلاه هو أنْ تَلفُظَا اسمي.

- أهو سيّئُ الحالِ إلى ذلك الحد؟؟

- أوه، أجل. وسوف يموت على ما يخشون.

- ياللكونت دايونيس المسكين. كنتُ أحبه. كان يشبه النسناس قليلاً، ولكنْ كان له مزاياه. أهداني كشتباناً في عيد ميلادي السابع عشر، كشتباناً مُسَلّياً جدّاً.

- أذكره ياعزيزتي.

- ومع ذلك فإنَّ زوجته لا تُطاق. وإني لأَتَساءل فيما إذا كان يكترث لموته وهو بعيد عنها. وأَتَساءلُ إنْ كانت تعرف.

– لا أعتقد ذلك. لم يستطيعوا حتَّى أنْ يعرفوا اسمَه كما ينبغي. كلُّ ما عرفوه هو أنه كان عقيداً في فوج من الأفواج.

قالت دافني:

– في سلاح الفرسان الرابع. ياللكونت دايونيس المسكين. كنت دائماً أفكر باسمه الجميل: الكونت جوهان دايونيس بسانيك. كان شديد التأنق على نحو بارز. وكان راقصاً بارعاً على نحوٍ مذهل. وصحيح أنه كان ضئيل البنية، إلاَّ أنّه كان نَشِطاً. إني أتساءَلُ فيما إذا كان يكترث بالموت.

– كان بطريقته الحيوانية الصغيرة والخاصة يعجُّ بالحياة. يقولون أنَّ صغار القامة مغرورون دائماً ولكنه لا يبدو مغروراً الآن يا عزيزتي. ثمة شيء يوغل في الكهولة في وجهه، وبَلَى، ثمة جمال ما يا دافني.

– هل تعنين الأهداب الطويلة؟؟

– كلا. بل سكونه وانزواءه. والكهولة الموغلة في سلالته. إنني أعتقد أنه ينتمي ولا شك إلى إحدى تلك السلالات الصغيرة الغريبة البدائية التي انحدرت من أوروبا الوسطى. لقد شعرتُ وأنا بقربه أنني وُلِدْتُ من جديدٍ تماماً.

قالت دافني:

– هذا جميل منك.

ومع ذلك، اتصلت دافني في اليوم التالي هاتفياً بهيرست بليس لتسأل عن أخباره. كان في الحالة نفسها تقريباً. وراحت تتصل هاتفياً كل يوم. ثم علمتْ أنّه ازداد قوة عَمّاً قبل. ولكنْ في اليوم الذي استلمت فيه رسالة تفيد أنَّ زوجها قد جُرِحَ وأُسِرَ في تركيا، وأنَّ

جراحه كانت تتماثل للشفاء، نسيت أن تتصل هاتفياً لتستعلم عن أنباء الكونت العدو الصغير. وفي اليوم التالي اتصلت قائلة أنها سوف تأتي إلى المستشفى لتراه.

كان مستيقظاً وقد ازداد تململه وازدادت إثارته الجسدية. كان في مقدورهم أن يلمحوا غثيان الألم حول أنفه. بدا وجهه لدافني متوارياً على نحو غريب خلف اللحية السوداء التي كانت مع ذلك رقيقة، وكانت كل شعرة منها تخرج دقيقة ورفيعة وعلى انفراد من الجلد الشاحب الذي كاد أنْ يكون شفَّافاً على نحو طفيف. وبالطريقة نفسها كان شاربه يرسم خطّاً أسودَ رفيعاً حول فمه.

كانت عيناه متسعتين على آخرهما، وشديدتي السواد، لا يمكن قراءة أيِّ تعبير فيهما. راح يراقب المرأتين وهما تنزلان إلى الغرفة الكئيبة المكتظة وكأنه لم يرهما. وكانت عيناه تبدوان غاية في الاتساع.

كان يوماً بارداً، وكانت دافني تتلفع بمعطف من جلد الفقمة ذي ياقةٍ من فرو الظربان الأمريكي رُفِعَتْ إلى أذنيها، وقلنسوة ذهبية باهتة ذات جناحين شُدَّتْ على جبينها. وكانت السيدة بيفيردج ترتدي معطفها المصنوع من فراء السَّمُّوْرِ، فبدت ذات أناقة غريبة مُهْمَلَة كانت طبيعية بالنسبة لها، وأشبه ما تكون بدجاجة منفوشة الريش.

أثارت المستشفى اضطراب دافني. راحت تنظر ذات اليمين وذات اليسار رغم أنفها، وكان كل شيء يمنحها شعوراً كئيباً بالرهبةِ: رهبةِ هؤلاء الرجال الأعداء الجرحى والمرضى. وكانت تبدو طويلة وبارزة في فرائها قرب السرير، وقد وقفت أمها ذات البنية الضئيلة إلى جانبها.

قالت بالألمانية للرجل المريض:

– آمل أَلاَّ يزعجك حضوري.

وشعَرتْ بصدأٍ في لسانها وهي تتحدث بهذه اللغة. سأل الرجل:

– مَنْ هذه إذن؟؟

– إنّها ابنتي السيدة دافني. لقد تَذَكَّرْ تَني، أنا السيدة بيفيردج. وهذه ابنتي التي كنتَ تعرفها في « ساكسوني ». لقد أحسَّتْ ببالغ الأسف عندما عَلِمَتْ أنكَ جريح.

واستقرّت العينان السوداوان على السيدة الصغيرة. ثم عادتا إلى طيف دافني الضخم. وارتسم خوفٌ على الجبين الخفيض المريض. كان واضحاً أنَّ حضورها أرعبه. أشاح بوجهه جانباً. ولاحظت دافني كيف كانت الشعرات السود الدقيقة وغير الحليقة تنمو فوق أذنيه الحيوانيتين الصغيرتين. قالت بفتور:

– أَلاَ تذكرُني أيها الكونت دايونيس.

قال:

– أجل.

ولكنه ظل مُشِيحاً بوجهه.

ووقفت هناك وهي تشعر بالاضطراب والتعاسة وكأنها ارتكبت زَلَّةً اجتماعية بحضورها. قالت:

– هل تُفَضِّلُ أنْ نتركَكَ بمفردك. أنا آسفة.

كان صوتها رتيباً. شعرتْ فجأةً بالاختناق داخل فرائها المغلق، ففتحتْ أزرار معطفها وظهرت حنجرتها البيضاء النحيلة وقميصها

السفلي الأسود البسيط، على صدرها المنبسط. واستدار مرة أخرى دون قَصْدٍ لينظرَ إليها. وراح ينظر إليها وكأنها مخلوق غريب يقف إلى جانبه. قالت:

– وداعاً. آمل أنْ تتعافى.

كانت تنظُرُ إليه نظرةً غريبةً منحدرة مُنْصَبَّةً عليه من عينيها الثقيلتين عندما استدارت مبتعدة. كان لا يزال ثمة إحمرارٌ حول عينيها، وإنهاك عصبي. قال وهو لايزال يشعر بالرعب:

– أنت طويلة جداً.

قالت وهي تستدير نحوه مرة أخرى نصف استدارة:

– كنتُ دائماً طويلة.

قال:

– وكنتُ أنا دائماً ضئيل البنية.

قالت:

– أنا في غاية السرور لأنك تتحسن.

قال:

– أما أنا فلستُ مسروراً.

– لماذا؟؟ إنني متأكدة من أنكَ مسرور . تماماً مثلما نحن مسرورون لأننا نريدك أن تتحسن.

قال:

– أشكركِ. لقد تمنّيتُ أن أموت.

قالت بأسلوب أنوثتها العميق إلى حدٍ ما والمُقْتَضَب:

- لا تَقُلْ ذلك أيها الكونت دايونيس. آمل أن تتحسن.

رمقها بنظرة موغلة في التمييز، ولكنَّ أنفَه القصيرَ الحادَّ إلى حدٍّ ما كان مرفوعاً بغَثَيَانٍ وسَأَمِ الألم، وكان مشدود الحاجبِين. وراح يراقبها بلهيب المعاناة الغريب ذاك، والمرغم على إيلاءِ اهتمامٍ خارجيٍّ صغيرٍ لا يتحدث إلاَّ إلى نفسه.

قال:

- لماذا لم يتركوني أموت. كنت أريد الموت الآن.

قالت:

- كلا. لا ينبغي ذلك. يجب أن تعيش. إذا كُنّا نستطيع أن نعيش، فيجب أن نعيش.

قال:

- كنت أريد الموت.

قالت:

- آه. حسناً. حتى الموت لا نستطيع الحصول عليه عندما نريده، أو عندما نعتقد أننا نريده.

قال وهو يراقبها بالعينين السوداوين المتَّسِعتيْن نفسيْهما:

- هذا صحيح. أرجوك تفضلي بالجلوس. أنت بالغة الطول وأنت واقفة.

كان واضحاً أن هيئتها المتضخمة المتوعدة كانت لا تزال ترعبه. قالت وهي تأخذ كرسياً أحضره لها أحد الممرضين:

- أنا آسفة لطولي البالغ.

كانت السيدة بيفيردج قد ابتعدت لتتحدث مع الرجال. جلست دافني وهي لا تعرف ماذا تقول أكثر من ذلك. كانت النظرةُ السوداءُ سوادَ القار من عيني الكونت الواسعتين قد أرْبَكَتْها. قال:

– لماذا تأتين إلى هذا المكان؟؟ لماذا تأتي السيدة والدتك؟؟

أجابت:

– لنرى فيما إذا كان في مقدورنا أن نفعلَ أيَّ شيء.

– عندما أستعيد عافيتي سأشكر حضرتك.

أجابت:

– حسناً. عندما تستعيد عافيتك سأدع سيدي الكونت يشكرني. وأرجوك أنْ تستعيد عافيتك.

قال:

– نحن أعداء.

– مَنْ؟؟ أنتَ وأنا وأميّ؟؟؟

– أَلَسْنَا أعداءً؟؟؟ إنه لمن أصعب الأمور أنْ يتأكد المرءُ من أيِّ شيء. ليتهم تركوني أموت.

– إنّ ذلك بغيض، على الأقل، أيها الكونت دايونيس.

– السيدة دافني!..أجل. السيدة دافني!.. إنْ هذا الاسم جميلٍ. هل تُدْعَيْنَ دائماً السيدة دافني؟ أذكرُ أنكِ كنت حسناء متألقة جداً.

قالت ردّاً على سؤاله:

– تقريباً.

– آه. ينبغي أن يكون لدينا جميعاً أسماء جديدة الآن. لقد فَكّرتُ باسْمٍ لنفسي، ولكنني نسيتُه. لم يعد اسمي جوهان دايونيس.

لقد تم التخلص منه. أنا كارل أَوْ فِلْهَلْم أوْ إرنستْ أوْ جورج. إنها أسماء أكرهها. هل تكرهينها؟؟

- لا أحبها، ولكنني لا أكرهها. ولا يتحتم عليك أَنْ تَكُفَّ عن كونِكَ الكونت جوهان دايونيس. إذا فعلتَ ذلك فسوف يتحتم عليَّ أنْ أَكُفَّ عن كَوْني دافني. إنني أحبُّ اسمَكَ أَيَّما حب.

كرَّرَ قائلاً:

- السيدة دافني!..السيدة دافني!.. أجل، إنَّ له رنيناً جميلاً، وهو عَذْبُ الوقع في نفسي. أعتقد أنني أتحدث بغباء. أسمع نفسي وأنا أتحدث بغباء معك.

ونظر إليها بلهفة وقلق. قالت:

- كلا. على الإطلاق.

- آه. إنَّ لديَّ رأساً فوق كَتِفَيَّ يشبه طاحونة هوائية يديرها طفل صغير، ولا أستطيع منعه عن تشكيل الكلمات الحمقاء. أرجوك أن تمضي، وألاَّ تستمعي إليَّ. أستطيع أنْ أسمع نفسي.

سألته قائلة .

- أَلاَ أستطيع أن أقوم بأيِّ شيء من أجلك؟؟

- كلا. كلا. كلا. كلا. لو كان في الإمكان أنْ أُدْفَنَ عميقاً في باطن الأرض. عميقاً جدّاً حيث يؤولُ كل شيء إلى النسيان. ولكنهم يسحبونني نحو الأعلى ثانية، إلى السطح. لن أبالي لَوْ دفنوني حيّاً شرطَ أنْ يكونَ الدفنُ في مكان عميقٍ جدّاً ومظلم، وأنْ تكونَ الأرضُ ثقيلةً فوقي.

أجابت وهي تنهض:

- لا تقُلْ ذلك.

- كلاّ. إنني أقول هذا وأنا لا أتمنى أنْ أقوله. لماذا أنا هنا؟؟ لماذا أنا هنا؟؟ لماذا بقيتُ على قيد الحياة حتى وصلْتُ إلى هذه النقطة؟؟ لماذا لا استطيع التوقف عن الكلام؟؟

أشاح بوجهه جانباً. كان الشعر الأسود الجُنِّيُّ طويلاً جداً وقد رُفِعَ في خصلاتٍ عن مُؤَخَّرِ عنقه البُنِّيِّ الناعم. نظرت إليه دافني بحزن. لم يستطع أن يديرَ جسمه. كل ما استطاعه هو أنْ يُديرَ رأسه فحسب. كان يستلقي وقد أشاح بوجهه جانباً في قسوة، وكان شعر لحيته الدقيق ينتأ غريباً من أسفل ذقنه ومن حنجرته صعوداً حتى تجويف أذنه.

كان يستلقي في هدوء تام وهو في وضعيته تلك. واستدارتْ هي مبتعدة تفتش عن والدتها. كانت قد أدركتْ على حين غرّة أنَّ القيودَ والروابطَ بينه وبين حياته في العالم قد انكسرت، وها هو يستلقي هناك قطعة من الإنسانية السائبة المرتجفة وقد طرحها جسد الإنسانية.

ومرَّتْ عشرةُ أيّامٍ قبل أنْ تذهب إلى المستشفى مرة أخرى. لم تكن تودّ الذهاب إلى ذلك المكان مرة أخرى، أبداً، وكانت تريد أنْ تنساه كما يحاول المرءُ أنْ يَنْسَى ما لا يُنْسَى. ولكِنْ لم يكنْ في وُسْعِها أنْ تنساهُ. كان يتطرَّقُ، مرّةً تِلْوَ أخرى، إلى مخيّلتها. وكان يتحتّم عليها أن تعود. سمعتْ أنه راح يُبِلُّ من مرضه على نحو بطيء للغاية.

كان يبدو أفضلَ حالاً في الواقع. لم تكن عيناه مفتوحتين على

اتساعهما، بل كانتا قد فقدتا تلك الواجهة الحِبْريَّة السوداء، التي كانت تسبغ عليه مظهراً شاذّاً وبغيضاً. راح يراقبها بحذر. خلعت فراءها فَبَدَتْ مكسوّةً بفستانها فحسب وقبعة نسوية داكنة وناعمة صُنِعَتْ من الريش.

قالت وقد أَبْقَتْ وجهها جانباً دونما رغبة في أنْ تقابلَ عينيه:

- كيف الحال؟؟

- أشكُرك. إنني أفضل حالاً. ليست الليالي طويلةً جدّاً.

وارتجفت، إذْ أدركتْ كم هي طويلة الليالي المقصودة. ورأى النظرة المتعبَةَ في وجهها أيضاً، وحوافّ عينيها المحمَرّة. سألها:

- ألستِ على ما يرام؟؟ هل تعانين أيّة متاعب؟؟

أجابت:

- كلا. كلا.

كانت قد أحضرت حفنة من الأزهار القرمزية ذات الشكل الرائع. سألته:

- هل تهتم بالأزهار؟؟

نظر إلى الأزهار، ثم هز رأسه ببطء. قال:

- كلا. لو كنتُ على صهوة حصان عبر المستنقعات أو الهضاب، لأَحْبَبْتُ أنْ أراها إلى الأسفل مني. أما هنا، فلا. وليس الآن. أرجوكِ ألاّ تُدْخِلي أزهاراً إلى هذا القبر. حتى في الحدائق لا أحبها. ولا أحبها عندما تكونُ أدواتٍ للزينة في الحياة البشرية.

قالت:

- سأرْجِعُها ثانية.

- أرجوك أنْ تفعلي ذلك. أرجوكِ أنْ تعطيها للممرضة.

صَمَتَتْ دافني قليلاً. قالت:

- ربما كُنْتَ تتمنّى أَلاّ آتي وأزعجك.

نظر في وجهها ثم قال:

- كلا. أنتِ كزهرةٍ خلف صخرة، قرب ماء متجمّد. كلا. لا تعيشين كثيراً. أخشى ألاّ أستطيع التحدث بإحساس. أتمنى أنْ أُبْقِيَ فمي مُطْبَقاً. عندما أفتحه، أتحدّثُ بهذا السُّخْف. إنَّ السُّخْفَ يُفْلِتُ من فمي.

قالت:

- ليس الأمرُ سخيفاً إلى هذا الحدّ.

ولكنه كان صامتاً. كان ينظر إلى جهة بعيدة عنها. قالت:

- أُريدكَ أنْ تخبرني فيما إذا لم يكنْ ثمة ما أستطيع أنْ أفعله من أجلك.

أجاب:

- لا شيء.

- إذا كان في مقدوري أنْ أكتبَ أيَّةَ رسالة من أجلك.

أجاب:

- لا شيء.

- ولكنْ هل تعرفُ زوجتك وطفلاك أين أنت؟؟

- لا أعتقد ذلك.

- وأينَ هُمْ؟؟

- لا أعرف. من المحتمل أنْ يكونوا في هنغاريا.
- أليسوا في بيتكم؟؟
- لقد احترقَ قصري في حادث شَغَب، وذهبتْ زوجتي مع الأطفال إلى هنغاريا. لديها أقارب هناك. لقد رَحَلَتْ عنّي وكنتُ أتمنّى ذلك أيضاً. واأسفاه عليها. لقد تمنّيْتُ أنْ أموت. اعذريني لهذه الأمور الشخصية.

وخفضت دافني بصرها إليه، إلى هذا الرجل الغريب العنيد الصغير.
- ولكنْ، أليس لديكَ من تودّ أنْ تخبرَه بشيءٍ ما، أوْ مَنْ تَودّ أنْ تسمعَ منهُ شيئاً؟؟
- لا أحد. لا أحد. أتمنّى لو احترقتِ الرصاصةُ قلبي. أتمنّى لو أموت، ولكن كل ما في الأمر أنَّ ثمة شيطاناً في جسدي لن يموت.
نظرتْ إليه وهو يستلقي بوجهٍ مُغْلَقٍ وقد أُشِيحَ جانباً. قالت:
- ما يُبقيكَ حيّاً ليس شيطاناً على وجه التأكيد، بل هو شيء طيب.

قال:
- كلا. بل هو شيطان.

جلستْ وهي تنظر إليه نظرةً طويلةً بطيئةً متعجبة. ثم سألته:
- هل يتحتّم على المرء أنْ يكره شيطاناً يجعله يحيا؟؟
أدار عينيه إليها بمسحة من ابتسامة هجائية قائلاً:
- كلاّ. إذا كان المرءُ يحيا.

وأشاحتْ ببصرها بعيداً عنه في اللحظة التي نظر فيها إليها. لم

يكن في وسعها أن تقابل عينيه الداكنتين مباشرة، حفاظاً على حياتها.

غَادَرَتْهُ وكان لا يزال مستلقياً. ولم يكن يقرأ أو يتحدث طوالَ ليالي الشتاء الطويلة وأيامه القصيرة.

كان يستلقي فحسب، لعدة ساعات، بعينين سوداوين مفتوحتين، ناظراً إلى كل ما حوله بمسحة من الاشمئزاز دون أنْ يبالي بشيء.

وكانت دافني تذهب لتقابله بين الفينة والفنية. ولم يَحْدُثْ أنْ نَسِيَتْهُ لفترةٍ طويلة. كان يتطرّق إلى مخيلتها فجأة على ما يبدو، وكأنّما بفعلِ السِّحر.

قال لها ذات يوم:

- أرى أنّكِ متزوّجة. هل يمكنني أنْ أسألكِ مَنْ هو زوجك؟؟

أَخْبَرَتْهُ. كانت أيضاً قد تلقَّتْ رسالة من بازل. ابتسم الكونت ببطء وقال:

- في إمكانكِ أنْ تأملي إعادةَ شملٍ سعيدةً وأطفالاً جُدُداً وأحبّاءً أيتها السيدة دافني. أليس الأمرُ كذلك؟؟

قالت:

- أجل. بالطبع.

قال لها:

- ولكنّكِ مريضة.

- أجل. إلى حدٍّ ما.

- بماذا؟؟

أجابت باضطراب وهي تشيح بوجهها جانباً:

– أوه. إنهم يتحدّثون عن الرئتين.

كانت تكره أنْ تتحدث عن مرضها. وأردَفَتْ قائلة بسرعة:

– ولكنْ عجباً!.. كيف عرفْتَ أنّني مريضة؟؟

ومرّةً أخرى ابتسم ببطء. قال:

– أرى ذلك في وجهك، وأسمعه في صوتك. إنَّ المرءَ ليقول أنَّ الشيطانَ قد خلع عليكِ سِحْراً.

قالت بسرعة:

– أوه. كلا. ولكنْ هل أبدو مريضة؟؟

– أجل. تبدين وكأنّ شيئاً ما قد أصابكِ في وجهكِ، ولم تتمكّني من نسيان ذلك.

قالت:

– لم يُصِبْني شيء. إلاَّ إذا كانت الحرب.

كرَّرَ قائلاً:

– الحرب!...

قالت:

– أوه، حسناً. دعنا نتجنّب الحديثَ عنها.

قال لها في وقت آخر:

– لقد انقضى العام. وينبغي أنْ تشرق الشمسُ في النهاية، حتى في إنكلترا. أخشى أنْ أصبحَ أحسنَ حالاً عمَّا قريب. إنني أسيرٌ، ألَسْتُ كذلك؟؟ ولكنني أتمنى أنْ تشرق الشمس. أتمنى أنْ تشرق الشمس على وجهي.

قالت:

- لن تبقى أسيراً إلى الأبد. سوف تنتهي الحرب. والشمس تشرق فعلاً في إنكلترا حتى في الشتاء.

قال:

- أتمنّى أنْ تشرق على وجهي.

لذا، عندما بزغ في شباط صباحٌ صباحٌ صافٍ برّاقُ، صباحٌ يوحي بالزعفران الأصفر ورائحة شجرة المازريون(*)، ورائحة الأرض الرطبة الدافئة، استقلّتْ دافني سيارةَ أجرةٍ بسرعة، وانطلقتْ إلى المستشفى.

قال لها في اللحظة التي رآها فيها:

- لقد جئتِ لتضعيني في الشمس.

قالت:

- أجل. هذا ما جئتُ من أجله.

وتحدَّثتْ إلى المُشْرِفة، وتمَّ نَقْلُ سريرِهِ إلى حيث كان ثمة نافذة كبيرة ومنخفضة. هناك كان تحت أشعة الشمس مباشرة، بحيث إذا ما استدار كان في ميسوره أنْ يشاهدَ السماءَ الزرقاءَ، وقممَ الأشجارِ العاريةِ المتلألئة المائلة إلى اللون الأرجواني. غمغم قائلاً:

- العالم!.. العالم!..

استلقى وقد أسبلَ عينيه، وغمرت الشمس وجهَه الداكنَ الشفّاف والجامد. وراحتْ أنفاسُه تدخل وتخرج عبر مِنْخَرَيْهِ على نحو خَفِيّ.

(*) المازريون: شجر أرجوانيّ الزهر. المترجم.

واستغربتْ دافني كيف يستطيع أنْ يستلقيَ هادئاً على هذا النحو، وكيف يمكن أنْ يبدوَ جامداً إلى هذا الحدّ. كان ما قالته والدتُها صحيحاً: «كان يبدو وكأنه أُلْقِيَ في القالب عندما كان المعدن ساخناً إلى درجة البياض، وكانت تقاطيعُه نظيفةً جداً بأكملها». صغيراً جداً كان، وكاملاً على طريقته.

وانفتحتْ عيناه القاتمتان فجأة وضبطها تنظر إليه. قال:

- إنَّ الشمسَ تجعل حتى الغضب يتفتَّح كزهرة.

قالت:

- غضب مَنْ؟؟

- لا أعرف. ولكنني أستطيع أنْ أُشَكِّلَ أزهاراً بالنظر عبر أهدابي. هل تعرفين كيف؟؟

- هل تقصد أقواس قزح؟؟

- أجل، أزهاراً.

ورأتْه ينظرُ إلى الشمس عبر جفنيه المُسْبَلَيْنْ تقريباً، وقد رانتْ على شفتيه ابتسامة غريبة.

قال:

- ليست الشمس إنكليزيةً، ولا ألمانيةً، ولا بوهيمية. أنا أَحَدُ رعايا الشمس. إنّني أنتمي إلى عَبَدَةِ النّار.

أجابت:

- حقاً؟؟

نظر إليها مبتسماً وقال:

- أجل. بِصِدْق. وعن طريق الوراثة.
وأضاف:
- تقفين هناك كزهرة سوف تذوب.

ابتسمت له على نحوٍ بطيء.، وبنظرة محترسة بطيئة من عينيها وكأنها كانت تخشى شيئاً ما.

قالت:
- إنني أصلبُ بكثيرٍ ممّا تتصوّر.

وَظَلَّ يراقبها. قال:
- ذات يوم، وقبلَ أنْ أرحلَ، دعيني أَلُفّ شَعْرَكِ حول يديّ. هل ستسمحين بذلكِ؟؟

ورفع يديه النحيلتين القصيرتين الداكنتين قائلاً:
- دعيني ألفّ شعرَكِ حول يديّ كضمّادة. ثمة ما يؤذيني. لاأعرف ما هو. أعتقد أنه كل انفجارات المدافع. ولكنْ، لو تسمحين لي أنْ ألفَّ شَعْرَكِ حول يدّي. هل تعرفين أنه الذَّهَبُ السِّحْرِيُّ، ولكنَّ فيه الكثيرَ من الماء، من القمر. وسوف يُهَدِّىءُ ذلك يديَّ. هل ستسمحين ذات يوم؟؟

قالت:
- دعنا ننتظر حتى يأتي ذلك اليوم.

أجاب، وكان هادئاً مرة أخرى:
- أجل.

قال بعد فترة قصيرة:

- يزعجني أنني أشكو كطفل، وأطلب أشياء. أشعر أنني فقدت رجولتي في الوقت الراهن. يا لانفجارات المدافع والقذائف المستمرة هذه!... يبدو أنها تُخْرِجُ روحي مني كطائرٍ فَرَّ مَذْعُوراً في النهاية. ولكنها سوف تعود، كما تعلمين. وأنا في غاية الامتنان لك، أنت طيبة معي وأنا فاقد الروح، أنت لا تخدعينني. إنَّ روحك هادئة وبطولية.

قالت:

- لا تتحدَّثْ. لا تتحدَّثْ.

وارتسم على وجهه تعبيرٌ ينَمّ عن الخِزْيِ والكرب والاشمئزاز. قال:

- إنَّ هذا ما يحدث لأنني لا أستطيع التوقف عن الكلام. لقد فقدْتُ روحي، ولا أستطيع التوقف عن الحديث إليك. لا أستطيع أنْ أتوقّف. ولكنني لا أتحدثِ إلي أيّ شخص آخر. أحاول ألاَّ أتكلم، ولكنني لا أستطيع أنْ أَحُولَ دون ذلك. هل تسحبين الكلمات مني؟؟؟

وبَدَتْ عيناها الواسعتان الخضراوان المُزْرَقَّتان مثلَ لُبِّ زهرةٍ غريبة كاملة التفتّح، مثل وردة من ورود عيد الميلاد بتُوَيْجاتِها المجبولةِ من الثلج والنضارة. كان شعرها يومض غزيراً كالذهب المائي. وكانت تقف هناك هامدةً لا تُقْهَرُ، بإصرارِ طبيعتها الشقراء الشتائية المَشْدُوه.

عندما جاءت لتراه في يوم آخر، راح يراقبها لفترة من الوقت ثم قال:

- هل يُخْبِرك الجميعُ أنك جميلة وفاتنة؟؟

أجابت:

– لا الجميع تماماً.

– وزوجك؟؟

– لقد قال ذلك.

– هل هو لطيف؟؟ هل هو حنون؟؟ هل هو عاشق مُتَيَّم؟؟

وأشاحت بوجهها جانباً مستاءة. أجابت باقتضاب فَظّ:

– أجل.

لم يُجِبْ. وعندما نظرتْ إليه مرّةً ثانيةً كان يستلقي وقد أسبلَ عينيه، وبدا أنَّ ثمةَ ابتسامةً باهتة كانت تلتفّ حول أنفه القصير الشفاف. كان في مقدورها أن ترى، وعلى نحوِ طفيف، جلدَه عَبْرَ لحيته، كالماءِ عبر القصبات. كان شعره مُسَرَّحاً بنعومة كالزجاج، وكان حاجباه يومضان كانحناءةِ كأسٍ أسودَ فوق بريقِ جبينه الداكن.

وتحدَّثَ فجأة دون أن يفتح عينيه. قال:

– لقد كُنْتِ في غاية اللطف معي.

– هل كُنْتُ كذلك؟؟ لا شيء يستحق الذِّكْر.

فتح عينيه ونظر إليها. قال:

– لِكُلِّ شيء زوج. القاقوم(*) وابن عِرْسِ المُنْتِنِ والصقر الحوّام. ويعتقد المرء أنَّ اليمامةَ والعندليبَ والأيِّلَ بقرونه المتشعّبة هي التي تتمتع بأزواج لطيفة فقط. ولكنَّ لابنِ عِرْسِ المُنْتِنِ ودببةِ الشّمال الثلجية أزواجَها. إنّ الدبّةَ البيضاءَ تستلقي مع جِرَائها، تحت صخرة، كما

(*) القاقوم: حيوان من فصيلة بنات عِرْس. المترجم.

تستلقي الأفعى مختبئة، ويسبح الدبُّ الذَّكَرُ عائداً من البحر ببطء ككتلة من الثلج، أو كظِلٍّ سحابةٍ بيضاءَ تمرُّ على البحر المُبَقَّع. لقد رأيتُها. ولمْ أطلقِ النارَ عليها أوْ عليه عندما وصل إلى اليابسة بسمكةٍ في فمه، وراح يتقدم بجهد وهو مبلَّل وبطيء وأبيضُ اللون، على نحو يميل إلى الاصفرار، فوق الحجارة السُّود.

- هل كُنْتَ في المحيط الشمالي؟؟

- أجل، ومع الأسكيمو في سيبيريا، وعبر التندراس. وكانت أنثى صقر البحر تصنع لها عُشّاً على صخرة شاهقة، وكانت تُطِلّ أحياناً برأسِها الأبيضِ من فوق حافة الصخور. إنَّ العالَمَ ليس عالَمَ الرّجالِ فقط أيتها السيدة دافني.

قالت:

- كلا، إطلاقاً.

- وإلاَّ لكانَ مكاناً جديراً بالأسف.

قالت:

- إنّه سيّء بما فيه الكفاية.

- للثعالب أوجارُها. ولها أزواجُها التي تَعْوي من أجلها وتردّ عليها، أيتها السيدة دافني. ويجد الثعبان أنثاه. إنَّ كلمة «بسانيك» تعني الخارج على القانون. هل كُنْتِ تعرفين ذلك؟؟؟

- لم أكنْ أعرف.

- وللخارجين على القانون واللّصوصِ أجملُ الزوجات في أغلب الأحيان.

قالت:

- فعلاً.

- سأكون « بسانيك » أيتها السيدة دافني. لن أكون جوهان دايونيس بعد الآن. سأكون « بسانيك » لقد أرداني القانون تماماً.

قالت:

- يمكنكَ أنْ تكونَ بسانيك وجوهان ودايونيس أيضاً.

قال وهو ينظر إلى الشمس:

- والشمس على وجهي؟؟؟ ربما.

كان ثمة أيام جميلة في ربيع عام 1918.وفي آذار كان في مقدور الكونت أنْ ينهض. ألْبَسُوه ثوباًبسيطاً بلونٍ أزرقَ داكن. لم يكن نحيلاً جداً بل قاتمَ البشَرة إلى درجة الشفافية فحسب، وقد غدا حليقَ الذقن الآن، وقُصَّ شعْرُه. لقد جَعَلَتْهُ ضآلةُ جسمه لافتاً للنظر، بَيْدَ أنّه كان ذَكَراً وكاملاً في قَوَامِهِ الصغير. وقد وَلَّتِ الآن الأناقةُ التي تثير الابتسام والتي كانت تجعله يبدو مثل نسناسٍ في نظر دافني عندما كانت فتاة. كانت عيناه قاتمتين ومتغطرستين.

وكان يبدو أنه يحتفظ بتحفّظاته بين جوانحه. وذلك بعدم التحدث إلى أيٍّ شخص إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً، سواء إلى الممرضات، أو الزوّار، أوْ زملائه الأسرى، أوْ زملائه الضباط. بدا وكأنه يضع سِتْراً بينه وبينهم، وعَبْرَ هذا السِّتْرِ كان ينظر بعينيه القاتمتين اللتين كانتا جميلتي الأهداب، كما ينظر وحش صغير متغطرس من سِتْرِ عرينه. وكانت دافني هي الوحيدة التي كان يضحك لها ويحادثها في غير كلفة.

جلسَتْ معه في يوم من أيام آذار في حديقة المستشفى، ذات صباح كانت الغيومُ البيضُ فيه تعبر السماءَ الزرقاءَ على نحو رائع لا نهاية له. وكانت أشعة الشمس تبثُّ الإحساسَ بالدِّفْءِ خلف بُقَعِ الظِّل. سألها:

- أَلَمْ أُعْطِكِ كشتباناً في حفلة عيد ميلادك، عندما كنتِ في السابعة عشرة ؟؟

- أجل، ولا يزال في حوزتي.

- وفي أسفلهِ أفعى ذهبية، وفي أعلاه خنفساء من الحجر الأخضر(*) لدفع الإبرة بها؟؟

- أجل.
- هل تستعملينه؟؟
- كلا، فنادراً ماأخيط.
- هل يزعجكِ أنْ تخيطي لي شيئاً؟؟
- لن تروقَ لكَ دَرْزَاتي. ماذا ترغب منّي أنْ أخيط؟؟
- خيطي لي قميصاً لأرتديه. لم يسبق لي قَطّ من قبل أَنِ ارتديْتُ قمصاناً من المتاجر تحمل اسم صانعها. لَشَدَّ ما يُبْغِضُني ذلك.

نظرتْ إليه، ويا لحَاجبيْه الصغيرين المتغطرسين!.. قالت:

- هل لي أنْ أطلبَ من خادمتي أنْ تقوم بذلك؟؟

- أوه. أرجوكِ ألاّ تفعلي!.. أرجوكِ أَلاّ تفعلي!.. لا تُزعجي

(*) الحجر الأخضر: ضرب من الصخر البازلتي ذو لون أخضر داكن. المترجم.

نفسَك. كلا. أرجوكِ. لن أريده إلاَّ إذا قمتِ أنتِ نفسك بخياطته، وبكشتبانِ « بسانيك ».

صمتتْ لفترةٍ قصيرةٍ قبل أنْ تجيب. ثم تناهى صوتها ببطء:
– لماذا؟؟

استدار ونظر إليها بعينين داكنتين فاحصتين. قال على نحو متغطرس إلى حَدٍّ ما:
– لا سبب لَدَيّ.

وتركتِ الموضوعَ عند ذلك الحدّ ولم تذهبْ لرؤيته لمدة أسبوعين. ثم فجأة ذات يوم استقلَّتِ الباصَ نزولاً في شارع أوكسفورد، واشترتْ بعض الملابس الداخليةِ البيض المصنوعة من الفلانيلة. كانت قد قَرَّرَتْ أنه ينبغي أنْ يرتدي الفلانيلة.

وانطلقتْ في ذلك الأصيل إلى « هيرست بليس » رأتْهُ جالساً في حديقة المستشفى وهو ينظر عبر الحديقة إلى ضاحية لندن الحمراء التي كانت تطلق الدخان باهتياجٍ على مسافة قريبة وتعترضها بقعٌ من الأرض الجرداء ومغسلٌ مُسَطّحٌ ذو سقف من الصفيح. قالت:

– هَلاَّ أَعْطَيْتَني مقاسات قميصك؟؟

– إنَّ رقم ياقة هذا القميص الإنكليزي هو 15 . إذا طلبْتِ من المُشْرِفَة هذه المقاسات فسوف تعطيك إيّاها. إنّه ضخم قليلاً، وطويل الأكمام قليلاً كما ترين.

وهَزَّ طرفَ كُمِّ قميصه فوق معصمه قائلاً:

– وهو طويل بأكمله أيضاً.

قالت:

– من المحتمل أَلاَّ تكون القمصانُ عندما أخيطُها قابلة للإرتداء.

– أوه. كلا. دعي خادمتك ترشدك. ولكنْ أرجوكِ لا تدعيها تقوم بخياطته.

– هَلاَّ أخبرْتَني لماذا تريدني أنْ أخيطه.

–لأنني أسيرٌ وأرتدي ملابسَ الآخرين، وليس لديَّ ملابس خاصة. كلّ الأشياء التي ألمسها بغيضة بالنسبة إليّ. فإذا خاطَتْهُ خادمتُكِ سيبقى الأمرُ على ما هو عليه. وحدَك فحسب مَنْ يُمْكِنُ أنْ تعطيني ما أريد، شيئاً يَتزَرَّرُ حول حنجرتي وحول مِعْصَمَيّ.

– كيف كان الأمر في ألمانيا؟؟ أو في هنغاريا؟؟

– كانتْ والدتي تخيط لي. وبعدها كانت خالتي، وهي مديرة منزلي، تفعل ذلك.

– أَلَمْ تكن زوجتك تفعل ذلك؟؟

– طبعاً لا. لو فَعَلَتْ، لكان ذلك إهانةً لها. لم تكن قطّ أكثرَ من ضيفة في منزلي. في عائلتي تقاليد قديمة، ولكنها انتهت عندي. لقد بَذَلْتُ قُصَارى جهدي لإحيائها.

– بدءاً بتقاليدِ القمصان؟؟

– أجل. في عائلتنا، يجب أنْ تخيطَ القميصَ وتغسلَه امرأةٌ تحملُ دماءَنا: ولكنْ عندما نتزوج، يجب أنْ تقومَ الزوجةُ بذلك. لذا، عندما تَزَوَّجْتُ، كان في حوزتي ستّونَ قميصاً وأشياءُ أخرى كثيرةٌ، خاطتْها

والدتي وخالتي، وكلّها تحملُ الحروفَ الأولى من اسمي، والخنفساءَ المُنَقَّطَةَ التي هي شارة عائلتنا.

– وأين كُنَّ يضعْنَ الحروف الأولى؟؟

– هنا.

ووضع أصبعه على مؤخرة عنقه، على الجلد الداكن الشفّاف. وأضاف:

– أعتقد أنَّ في مقدوري أنْ أشعرَ بالخنفساء المُنَقَّطَةِ المُطَرَّزَةِ إلى الآن. نحن لا نضع تاجاً على ملابسنا الكتّانيةِ، بل الخنفساء المُنَقَّطَة فقط.

كانت صامتةً، تفكّر. قال:

– سوف تغفرين لي ما أطلبه منكِ، طالَمَا أنّني أسيرٌ، وليس في اليد حيلة، وطالما أنَّ القدرَ قد خَلَقَكِ بحيث تفهمين العالَم كما أفهمُه. إنَّ ما أطلبه منك ليس عملاً فظّاً في الواقع. ستكون ثمة خنفساء منقطة على أصبعك عندما تخيطين، وأولئك الذين يرتدون شارة الخنفساء المنقطة يفهمون ذلك.

قالت متأملة:

– أعتقد أنَّ وجودَ هذه النحلة في قميصك سيّئٌ كما لو كانت في قبعتك.

نظر إليها بعينين مستديرتين. قالت:

– ألاَ تعرفُ ماذا يعني وجود نحلة في قبعتك؟؟

– كلا.

قالت وهي تبتسم له:
- إنَّ وجودَ نحلةٍ تطنّ بين شعراتِ رأسكَ يعني فُقْدَانَ صوابك.

قال:

- هكذا إذن!.. آه. لقد كان لدى أفراد أسرة « بسانيك » خنفساء منقطة في قبعاتهم مئات كثيرة من السنين.

قالت:

- إنهم مجانين تماماً، تماماً.

أجاب:

- قد يكونُ الأمرُ كذلك، ولكنّني كنتُ في غاية الحكمةِ مع زوجتي لمدّةِ عشر سنوات.والآن امنحيني جنونَ الخنفساء المنقطة. لقد بدأ العالَم، الذي كنتُ فيه حكيماً، يُخَرِّف. والخنفساء المنقطة التي كنتُ مجنوناً معها لا تزال حكيمة.

قالت:

- على الأقلّ ستكون الخنفساء المنقطة عند طرف أصبعي عندما أخيط القمصان، إذا قُمْتُ بخياطتها.
- تريدين أن تسخري مني.
- ولكنّكَ تعلمُ بالتأكيد أنّكَ مضحكٌ بحشرةٍ عائلتك هذه.
- حشرة عائلتي. الآن تريدين أن تكوني فظّةً معي.
- كم بقعة يجب أن تحمل؟؟

- سبع بقع.

- ثلاث على كل جناح. وماذا سأفعل بالبقعة الباقية؟؟

- تضعين تلك البقعة بين أسنانها وكأنها كعكة أمام «سيربيروس»(*).
- سأذكر ذلك.

عندما أَحْضَرَتِ القميص الأولَ أعطته للمشرفة.

بعد ذلك وجدتِ الكونتَ دايونيس يجلس على المصطبة. كان يوماً ربيعياً جميلاً. وعلى مقربة من متناول اليد كان ثمة أشجارُ دَرْدَارٍ عاليةٌ، وبعضُ الغربان الناعبة. قالت:
- يا له من يوم جميل!.. هل بدأتَ تحبُّ العالَم على نحو أفضل من ذي قبل؟؟

قال وهو يرفع بصره إليها وقد ارتسمتْ على أنفه الدقيقِ الشفّافِ معالمُ السُّخْطِ والإشمئزازِ القديمة نفسها:
- العالَم؟؟

أجابتْ وقد ارتسمتْ على وجهها كآبةٌ ما:
- أجل.

- هل هذا هو العالم؟ كل تلك الصناديق ذات القرميد الأحمر التي تنتظم في صفوف ويعيش فيها أزواج من الناس الصغار الذين يرسمون قدري؟؟
- ألاَ تحبُّ انكلترا؟؟

- آه، انكلترا!.. منازل صغيرة كالصناديق الصغيرة، كل منها يحتوي على رجل انكليزي داجنٍ وزوجته الداجنة، وكل منها يحكم

(*) سيربيروس: كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية أنه يحرس باب الجحيم. المترجم.

العالم لأنها متشابهة جميعاً. في غاية التشابه.

- ولكنّ إنكلترا ليست جميع المنازل.

- الحقول إذن!.. حقول صغيرة بأسْيِجَةٍ لا تُحصى. مثل شبكة ذات عيون غير منتظمة مُثبَّتة فوق هذه الجزيرة. وكل شيء يقع تحت هذه الشبكة. آه، سامحيني أيتها السيدة دافني. أنا رجل عاقّ. إنني محشو تماماً بالنكدِ والضغينةِ كما تقولين، وحكمتي الوحيدة تكمن في الإبقاء على فمي مُطْبَقاً.

قالت وقد اصطبغ وجهها بالمرارة:

- لماذا تكره كل شيء؟؟؟

- أنا لا أكره كل شيء. ليتني كنت حُرّاً!.. ليتني كنت خارج إسار القانون!.. آه، أيتها السيدة دافني، كيف يمكن للمرء أنْ يُفْلِتَ من إسار القانون؟؟؟

قالت:

- باللجوء إلى داخل نفسه وليس إلى خارجها.

واتّخذَ وجههُ تعبيراً يَنمُّ عن المزيد من السُّخْط. قال:

- كلا. كلا. أنا رجل، أنا رجل، حتى لو كنت صغير البنية. لست روحاً تلفّ نفسها داخل قوقعة. وفي روحي يعتمل الغضب، الغضب الغضب. أعطيني مكاناً لغضبي. أعطيني مكاناً لذلك.

ونظرت عيناه السوداوان في عينيها على نحو حاد. وأسبلت عينيها وكأنها في شبه نشوة.

قالت بصوت رتيب مُنْتَش:

- من الأفضل بكثير أنْ تتغلّبَ على غضبك. ولماذا أنت غاضب؟؟

- ليس ثمة سبب. لو كان الأمر يتعلق بالحب، لَمَا سألتِني لماذا تحب؟؟ ولكنه الغضب، الغضب، الغضب. وماذا أستطيع أنْ أسمّيه غير ذلك؟؟ وليس ثمة سبب.

ونظر إليها مرة أخرى بعينيه القاتمتين الحادّتين المتسائلتين والمعذَّبَتَيْنْ. قالت وهي تشيح بنظرها جانباً:

- أَلاَ تستطيع التخلص منه؟؟

قال:

- لو أنَّ قذيفةً انفجرتْ تحتي إلى آلاف الشظايا، فلنْ تدمّرَ الغضبَ الكامنَ في داخلي. أعرف ذلك. كلاّ. لن يتبدَّد أبداً. ولا فكاكَ منه بالموت. ففي الموت يتابع الغضبُ أنينه، وهو يَصِرُّ بأسنانه. أيتها السيدة دافني، أيتها السيدة دافني، لقد استنفذنا الحبَّ بأكمله. وهذا ما تبقَّى.

أجابت:

- ربما استنفذْتَ أنتَ حبَّكَ بأكمله، ولكنك لَسْتَ كل شخص.

- أعرف ذلك. إنني أتحدّث عني وعنك.

قالت بسرعة:

- ليس عني.

لم يُجِبْ، وبَقِيَا صامتينْ.

وأخيراً أدارتْ عينيها ببطءٍ إليه. قالت بنبرة اتهامية:

- لماذا تقول أنك تتحدث عني.

- اعذريني. لقد تسرّعْتُ.

ولكنَّ مسحةً ضئيلة من التشامخ في نبرته أظهرتْ أنه كان يعني ما قاله. راحت تفكر وقد استحال جبينُها بارداً وحجريّاً. قالت:

- ولماذا تخبرني أنا عن غضبك؟؟ هل يُحَسِّنُ ذلك من وضعه؟؟

- حتى الصِّلّ يجد أنثاه، ولديها من السُّمِّ في فمها ما لديه هو.

ونَدَّتْ عنها ضحكةٌ مفاجئة صغيرة. قالت:

- إنه لأمر شاعري جداً أنْ تقول عنّي ذلك.

ابتسم، ولكنْ بالطبيعة الأَكَّالَةِ نفسها. قال:

- آه. لستِ يمامةً. أنتِ قطةٌ برّيّةٌ بعينين يقظتين، شبه حالمة على غصن في مكان موحش، مثلما رأيتها. وأنا أسأل نفسي: ما هي ذكرياتها إذن؟

قالت فجأة:

- أتمنى أنْ أكونَ قطة بَرِّيَّة.

حَدَجَها بنظرةٍ قارسة، ولم تُجِبْ. قالت له بمرارة:

- هل تريد المزيد من الحرب؟؟

- المزيد من الخنادق؟؟ المزيد من البرثيّات(*)؟؟ المزيد من القذائف والغازات السامة؟؟ المزيد من الجيوش المدرَّبة آلياً ذات المناورات العلمية كما تُسَمَّى؟؟ أبداً. أبداً. أُفَضِّلُ أنْ أعملَ في مصنعٍ للأحذيةِ

(*) البرثيّة: قَبّةٌ عريضة مُدَوَّرةٌ تغطّي الكتفين. المترجم

والجزماتِ بدلاً من ذلك. وأنا أُفَضِّلُ أن أتضوَّر جوعاً ببطء وحتى الموت على العمل في مصنع للأحذية والجزمات.

– إذن ماذا تريد؟؟

– أريد لغضبي أنْ يجد مكاناً لينمو.

– كيف؟؟

– لا أعرف. وهذا سبب جلوسي هنا يوماً إثْرَ يوم. إنني أنتظر.

– تنتظر أنْ يجدَ غضبُكَ مكاناً لينمو.

– أجل.

– وداعاً أيها الكونت دايونيس.

– وداعاً أيتها السيدة دافني.

كانتْ قد عَقَدَتِ العزمَ على أَلاَّ تذهب وتقابله مرة أخرى أبداً. ولم تستلم منه أية إشارة. وبما أنها كانت قد بدأت القميص الثاني، فقد تابعت خياطته. وراحت إذْ ذاكَ تُشرع أملاً في الانتهاء منه، لأنها كانتْ قد بدأتْ جولةً من الزيارات سوف تنتهي في المسكن الصيفي في اسكوتلندا. كانت تعتزم أنْ ترسلَ القميصَ بالبريد، بَيْدَ أنَّها في نهاية المطاف أَخَذَتْه بنفسها.

واكتشفتْ أنَّ الكونت دايونيس كان قد نُقِلَ من «هيرست بليس»، إلى « فوينيش هول » ، حيث كان يُحْتَجَزُ الضباط الآخرون من الأعداء. جعلها شعورها بالخذلان أشدَّ عزيمةً ومَضاء. فاستقلّتِ القطارَ، في اليوم التالي، لتذهب إلى « فوينيش هول » .

عند دخوله إلى حجرة الانتظار، التي كان يتحتم عليه أنْ يستقبلها فيها، شَعَرَتْ بالتأثير القديم الذي كان يشوب صَمْتَه وسَطْوَتَه الحادّة.

كان المظهرُ الداكنُ الشفّاف لشخصٍ تعيس لا يزال يَرِينُ على وجهه. بَيْدَ أنَّ أسلوبه كان متغطرساً ومتحفّظاً. قَبَّلَ يدها بتهذيب تاركاً لها دفّة الحديث. قالت:

– كيف حالُكَ؟؟ لم أعرف أنكَ كُنْتَ هنا. إنني ذاهبة لقضاء فصل الصيف.

قال:

– أتمنى لكِ وقتاً طيّباً.

كانا يتحادثان بالإنكليزية. قالت:

– أحضَرْتُ القميصَ الآخر. لقد انتهى أخيراً.

قال:

– هذا شرفٌ أعظمُ مِمّا أجرؤُ أنْ أتوقّع.

– أخشى أنْ يكونَ فيه من التشريفِ أكثر ممّا فيه من الفائدة. لم يناسبْكَ القميصُ الآخر، أليس كذلك؟؟

قال:

– تقريباً.

وابتسم قائلاً:

– لقد ناسبَ الرّوح إنْ لمْ يُناسبِ الجسد.

قالت:

– أُفَضِّلُ أنْ يحدثَ العكس هذه المرّة. أنا آسفة.

– لن أرتديه إذا اختلف درزة واحدةً.

– هل نستطيع أن نجلس في الحديقة؟؟؟

- أعتقد أنه يمكننا ذلك.

جلسا على مقعد. كان الأسرى الآخرون يلعبون الكروكي(*) على مسافة غير بعيدة، تاركين هذين الاثنين لوحدهما نسبياً. قالت:

- هل تُفَضِّلُ هذا المكان؟؟

قال:

- ليس لديَّ ما أتذمرَّ منه.

- والغضب؟؟

ابتسم قائلاً:

- إنه يتصرف بطريقة حسنة. أشكرك.

- هل تقصد أنه يتحسن؟؟

قال ضاحكاً:

- ضارباً جذوراً قوية.

قالت:

- آه، شريطةَ أنْ يضربَ جذوره فحسب.

- وكيف حالُ حضرتِك؟؟

أجابت:

- حضرتي في حالةٍ أَفْضَلَ نوعاً ما.

قال وهو ينظر في وجهها:

- أَفْضَل بكثير في الواقع.

سألته بسرعة:

(*) الكروكي: لعبةٌ بالكرات الخشبية. المترجم.

- هل تقصد أنني أبدو أفضلَ بكثير؟؟

- جِدّاً. إنَّ جمالَك هو ما تفكرين به. حسناً. إنَّ جمالَكِ يستعيد نفسه تقريباً.

- شكراً لك.

- أنتِ تطيلين التفكير في جمالِكِ مثلما أطيل التفكير في غضبي. آه يا صاحبة المقام النبيل، تَحَلَّيْ بالحكمةِ واعقدي صداقةً مع غضبِك. تلك هي الطريقة التي تجعل جمالك يُزْهِر.

قالت:

- لم أكن أُناصِبكَ العَدَاء، أليس كذلك؟؟

قال وقد ترجرج وجهه بضحكة:

- تناصبينني العداء؟؟ هل أنا غضبُكِ؟؟ كاهنُكِ في الغيظ؟؟ إذن اعقدي صداقةً مع ذاتي الغاضبة ياصاحبة المقام النبيل. إنني لا أطلب ما هو أَفْضَل من ذلك.

قالت:

- وما النفع لو عَقَدْتُ صداقةً مع ذاتك الغاضبة؟؟ لَشَدَّ ما أُفَضِّلُ أنْ أعقدَ صداقةً مع ذاتكَ السعيدة.

قال ضاحكاً:

- لقد انقرض ذلك الحيوان الصغير، وهذا ما يبعث السرور في نفسي.

- ولكنْ ماذا تبقَّى؟؟ ذاتك الغاضبة فحسب؟؟ إذن لا فائدة تُرْجَى من محاولتي أنْ نكونَ أصدقاء.

قال ضاحكاً:

– تَذْكُرين أيتها السيدة العزيزة دافني أنَّ الصِّلَّ لا يمتصّ سُمَّهُ كلَّه بمفرده، وابنَ عرسٍ المُنْتِنَ يعرف أين يجد أنثاه. تذكرين أنَّ لكلٍّ شخصٍ وليفَه العزيز. وليفَه العزيز المميت.

– وماذا لو كنتُ حقّاً أذكرُ تلك النتف من التاريخ الطبيعي أيها الكونت دايونيس؟؟؟

– إنَّ أنثى الصِّلِّ وسيمة، رقيقة، وتحمل سُمَّها بخفّة. وللقطة البرية عينان خضراوان رائعتان تُسْبِلُهُما بذاكرةٍ كَستَار. والدبة القطبية تختبئ كالثعبان مع جرائها، وزمجرتها هي أغرب ما في العالم.

سألته على حين غرّة قائلة:

– هل سَمِعْتَني أُزمجرُ قَطّ؟؟

ضحك فحسب، وَسَرَحَ بنظراته بعيداً.

صَمَتَا، وسرعان ما سادت بينهما رعشةُ السِّرِّيةِ الغريبة. كان شيء ما قد تجاوز الحزن وانخرط في صلة حميمية أخرى سِرِّيَّةٍ ومثيرةٍ، بَيْدَ أنّها ما كانت لتعترف بذلك. سألته:

– ماذا تفعل طوال اليوم هنا؟؟

– ألعب الشطرنج، وألعب الكروكي الحمقاء هذه، وألعب البليارد، وأقرأ، وأنتظر، وأتذكر.

– ماذا تنتظر؟؟

– لا أعرف.

- وماذا تتذكر؟؟
- آه. ذلك هو السؤال. هل يمكنني أن أخبرك ماذا يُسَلّيني؟؟ أيمكنني أن أُطْلِعَكِ على سِرّ؟؟؟
- كلا أرجوك، إنْ كان ذا شأن.
- لا شأن له بأحدٍ سواي. هل ستسمعينه؟؟
- إذا كان لا يورّطني بطريقة أو بأخرى.
- كلاّ. حسناً. أنا عضو في جمعية سرية قديمة. كلا، لا تنظري إليَّ على هذا النحو فليس في الأمر ما يثير الذعر. إنها جمعية فحسب، كالماسونية(*).
- وماذا؟؟؟
- حسناً. كما تعرفين، يدخلُ المرءُ فيما يُدْعَى بالأسرار والشعائر. لقد كانت عائلتي دائماً تعيش هذه الأسرار والشعائر، وأناأيضاً. هل يثير هذا اهتمامك؟؟
- عجباً!.. طبعاً.
- حسناً. لقد كانت هذه الأسرار تثيرني دائماً. أو بعض هذه الأسرار. بعضها كان يبدو لي بعيدَ المنشأ. ولا علاقة للأسرار التي كانت تثيرني أيّما إثارة بالحياة الواقعية أبداً. عندما تعرَّفْتِ عَلَيَّ في درسدن وبراغ، ما كان ليخطر لك أنني رجل مُشْبَعٌ بمعرفة سِرِّيَّةٍ مريعة. هل يخطر لك ذلك الآن؟؟؟
- أبداً.
- كلاّ. لقد كان هذا مجرد عَرَضٍ جانبي صغير ومثير، وكنت

(*) الماسونية: جمعية ذات صبغة دينية تعاونية في الظاهر تتميز بطقوس سرية معقدة، إلاّ أنها جمعية مشبوهة، صهيونية التأسيس والتمويل. المترجم.

عضواً صغيراً مُكَشِّراً. ولكنها تحققت الآن. إنها تتحقق.

- المعرفة السرية؟؟؟

- أجل.

- كيف، على سبيل المثال؟؟؟

- إنها تتخذ نيراناً فعلية. سوف يبعث ذلك على الضجر في نفسك. هل تريدين أن تسمعي؟؟

- تابعْ.

- هذا ما تَلَقَّنْتُه. النار الحقيقية خفية. إنَّ اللهيب، والنار الحمراء التي نراها تضطرم، يُدِيرُ ظهرَه لنا. إنّه يَفِرُّ مِنَّا. هل يعني ذلك أيَّ شيء بالنسبة لك؟؟؟

- أجل.

- حسناً إذن. إنَّ إصفرار ضوء الشمس، الضوء بحد ذاته، هو مجرد ومْضٍ جانبي للنار الأصلية الحقيقية، تعرفين أنَّ ذلك صحيح. لن يكون ثمة ضوء إذا لم يكن ثمة انعكاس، إذا لم يكن ثمة نُتَفٌ من الغبار والمادة لتحويل النار المظلمة إلى حيِّز الرؤية. تعرفين أنَّ تلك حقيقة علمية. ولهذا السبب فإنَّ الشمس، حتى، مظلمة. إنَّ غِلافَهَا الخارجيَّ المكوَّنَ من الغبار هو ما يجعلها مرئية. وتعرفين ذلك أيضاً. وأشعة الشمس الحقيقية القادمة باتجاهنا تنساب على نحو مظلم، وهي ظلام متحرك من النار الأصلية. الشمس مظلمة، وضوء الشمس المتدفق إلينا مظلم. والضوء هو مجرد الانحراف الداخلي لاستقامة الشمس التي كانت قادمة إلينا. هل يثير ذلك اهتمامك قَطّ؟؟؟

قالت بارتياب:

- أجل.

- حسناً. لقد أَخْرَجْنا باطنَ العالَم إلى النور. إنَّ عاَلَم النارِ الحيَّ الحقيقيِّ مظلمٌ، وينبض على نحو أشدّ ظلمة من الدم. إنَّ عالمناالمضيء الذي نمرُّ به هو مقلوب هذا.

قالت:

- أجل. أحب ذلك.

- حسناً. والآن إصغي. إنَّ الشيء نفسه ينطبق على الحب. إنَّ هذا الحب الأبيض الموجود لدينا هو الحالة نفسها. إنّه مُجَرّدُ العكس. إنه قبرٌ للحبّ الحقيقيّ مطليّ بالأبيض. الحب الحقيقي مظلم وينبض بأكمله في الظلام، كالقطة البرية في الليل عندما ينفتح الستار الأخضر وتطل عيناها على الظلمة.

قالت في صوت بطيء رنان:

- كلا. لا أعتقد ذلك.

- أنت وجمالك عبارة عن قَلْبِ ما في داخلك نحو الخارج. إنَّ ذاتك الحقيقية هي القطة البرية التي لا يمكن رؤيتها في الليل، بنارٍ حمراءَ تَصْدُرُ ربما عن عينيها المظلمتين الواسعتين. إنَّ جمالك هو قبرك المطلي بالأبيض.

قالت:

- هل تقصد مستحضرات التجميل؟؟ لم أَضَعْ أَيّاً منها اليوم، ولا حتى مسحوق البودرة.

ضحك، وقال:

- جيد جداً. تأمَّليني. لقد اعتَدْتُ أنْ أعتبر نفسي رجلاً صغيراً، لكنْ وسيماً، واعتادت السيدات أنْ يُعْجَبْنَ بي باعتدال، دونما إفراط

على الإطلاق. شخصٌ صغير أنيق كما تعرفين. حسناً، لقد كان ذلك انعكاساً لِما في داخلي نحو الخارج. إنني قِط أسود يُوَلْوِلُ في اللّيل، وعندئذ تنبعث مني تلك النار. إنَّ ذاتي التي تنظرين إليها هي قبري المطليُّ بالأبيض. ماذا تقولين؟؟

كانت تنظر في عينيه، واستطاعت أنْ ترى الظلامَ يتأرجح في الأعماق، ولاحظت النارَ الخفيَّةَ الشبيهةَ بالقططِ وهي تنشط في أعماقهما، وأحسّت أنَّ هذه النار قادمةٌ باتّجاهها. أشاحت بوجهها جانباً. فضحك عندئذ كاشفاً عن أسنانه البيض القوية التي بدت بالغة الضخامة إلى حدٍ طفيف، ومفزعة إلى حدٍ ما.

ونهضت لترحل. قالت:

– حسناً. سأقضي الصيف في التفكير في انعكاس ما هو داخل العالم إلى خارجه. اكتب لي إذا أردْتَ أنْ تقولَ أيَّ شيء. اكتب إلى « ثورذوي ». وداعاً.

قال:

– آه. عيناك!.. إنهما كجوهرتين من الحجارة.

وعندما ابتعدت عن الكونت، أَقْصَتْهُ عن مخيّلتها. كان كل ما انتابها هو الشعور بالأسف لكونه أسيراً في « فوينيش هول » تلك، التي تقزّز النفس . ولكنها لم تكتب له، ولم يكتب هو الآخر لها.

كان زوجها، في الواقع، هو الذي يشغل مخيلتها الآن إلى حدٍّ كبير. كانت جميع التدابير الرامية إلى تبادله مع أسير آخرَ قيد الإنجاز. وكانت تترقب عودته شهراً إثرَ شهر. وهكذا كانت تفكر فيه.

ومهما حدث لها كانت تفكر بذلك. وفكَّرتْ، وفكَّرتْ إلى حد كبير. كان وعي عقلها كألواح من الحجر تثقل كاهلها، ويتحتم على كل من يرغب في الدخول إليها من جديد أنْ يفتّت ألواح الحجر هذه إلى قطع صغيرة. لذا فكّرتْ كثيراً وبطريقتها الخاصة بما فيه الكفاية بانعكاسِ عالَم الكونت الداخلي إلى الخارج. ونشط كُمُونٌ غريب في وعيها، بَيْدَ أنَّه لم يكن قد شَكَّلَ فكرة بعد.

قال أن عينيها كانتا كجوهرتين من الحجارة. ما أشنع أن يقول المرء ذلك!..ماذا كان يريد من عينيها أنْ تُشْبِها؟؟ كان يريدهما أن تتسعا وتصبحا برمتهما بُؤْبُؤاً أسودَ كبؤبؤِ القطة في الليل.

وأجفلتها الفكرة على نحو متشنّج، وشدَّتْ صدرها.

قال أن جمالها كان قبرها المطلي بالأبيض. وحتى في تلك النقطة عرفت ماذا كان يعني. كان يريد أن يحب ما هو خفي فيها. ولكنْ، آه، كان جمالها الشبيه باللؤلؤة عزيزاً جدّاً عليها، وكان مشهوراً في العالَم.

قال أن حبها الأبيض كان، كضوء القمر، مؤذياً ونقيضاً للحب. وكان يقصد بازل طبعاً. كان بازل دائماً يقول ،أنها كانت القمر. ولكنَّ بازل أحبها عندئذ لهذا السبب. ويالنشوة ذلك!.. ارتعشت وهي تفكر في زوجها، بيد أن حب زوجها كان قد جعلها أيضاً مُرْهَقَة الأعصاب.

آه. مُرْهَقَة الأعصاب.

كيف سيكون حبُّ الكونت إذن؟؟ شيء في غاية السرية

والاختلاف. لن تكون فاتنة وملكة معه. كان يكره جمالها.. للقط البرِّيِّ وليفته. وكان هو ذلك القط البرِّيُّ الصغير. آه!..

التقطتْ أنفاسها وقد عقدت عزمها على ألاّ تفكِّر فيه. عندما كانت تفكر في الكونت دايونيس كانت تشعر أن العالم كان ينسلّ مبتعداً عنها. إنها لتودّ أنْ تجلس قُبَالَةَ مرآةٍ وتنظرَ إلى وجهها الرائع والمُعْتَنَى به جيدّاً، والذي كان قد ظهر في عدد كبير من المجلات الاجتماعية.

لَشَدَّ ما كانت تحب وجهها. كان يجعلها تشعر بالزهو الشديد. ونظرت إلى عينيها الخضراوين المُزْرَقَّتَيْنْ، عيني قطة برية تربض على غصن. أحل، الحدقة الخضراء المُزْرَقَّة الجميلة والمشدودة كَسِتَار. هَبْ أنها تراخت؟ هَبْ أنَّها تفتَّحَتْ وأخرجت الأعماق المظلمة، البؤبؤ المتسع المظلم!..هَبْ أنَّها فعلت ذلك؟

أبداً. كانت دائماً تشدُّ نفسها إلى الوراء. وأحست أنها قد تُقْتَلُ قبل أنْ تُفْسِحَ مجالاً لذلك التراخي الذي كان الكونت يريده منها. لم يكن في وسعها أن تفعل ذلك. لم يكن في وسعها أن تفعل ذلك وكفى. وبدأ عصبٌ مفرط الحساسية يعتمل في صدرها بوخز عظيم لمجرد التفكير في هذا الأمر بالذات. وتراجعتْ وقد أُرغِمَتْ على التزام جانب الحذر. آه، كلاَّ أيها المسيو الكونت. لن تبتعدَ صاحبةُ المقام النبيل عن حماها أبداً.

وكرهت التفكير في الكونت. إنه شخص صغير صفيق!.. إنه شخص صغير وقح!.. إنه رجل صغير مجنون فعلاً. إنه دخيل صغير. كلاَّ. كلاَّ. سوف تفكر في زوجها: رجل انكليزي فاتن وكريم المحتد،

بسيط وسهل جداً بالنظرة اللاهية في عينيه الزرقاوين. وفكرت في الأثر الجانبي الرفيع الذي يخلّفه صوته. وأثارَ ذلك النارَ في أعصابها. وفكرت في جسمه القويٍّ البسيط الجميل ذي اللحم الأبيض بشعره البني الدافيء النامي كألسنة لهيب دقيقة.

كان دايونيسوس(*)، وكان مفعماً بالحيوية، باللَّبَنِ والعسلِ والخمرِ الذهبية الشمالية: هو، زوجها، لا ذلك الكونت المزَّيف الصغير. آه، حَلِمَتْ بزوجها، بأيام الحب وشهر العسل والألفة البسيطة الفاتنة. آه، يالَبَوْحِ تلك العلاقة الحميمة الرائع، عندما كان يترك نفسه لها بشهامة كبيرةَ. آه. لقد أصبحتْ زوجته لهذا السبب، وهو أنه كان يمنح نفسه لها على نحو عظيم، وبشهامة كبيرة. كسنبلة القمح كان هناك لحصادها: زوجها، زوجها الانكليزي الفاتن، زوجها وحدها.

آه. متى سيعود مرة أخرى!.. متى سيعود مرة أخرى!..

كانت قد تلقَّتْ رسائلَ منه، وكم كان يحبها!..وفي المناطق البعيدة كانت حياته بأكملها مُلْكاً لها. كُلُّ حياته مُلْكٌ لها، وتنساب إليها كما ينساب الشعاع من نجمة بيضاء نازلاً إلينا تماماً، إلى قلبنا. حبيبها، زوجها.

كان من المتوقع أن يصل إلى البيت قريباً، وقد تَمَّ اتِّخاذ جميع التدابير من أجل ذلك.

كان قد كتب لها قائلاً: «آملِ أَلاَّ تُصَابي بخيبةِ أملٍ فِيَّ عندما أعود فعلاً. أخشى أَلاَّ أكون الرجلَ الفتيَّ الوسيم الممتلئَ الذي كُنْتُه.

(*) دايونيسوس: إله الخمر في الميثولوجيا الإغريقية. المترجم.

لقد أُصِبْتُ بندبةٍ كبيرةٍ عند طرف فمي، وأنا نحيل كأرنب يتضوّر جوعاً، وقد وَخَطَ الشَّيبُ شَعْري. إنَّ هذا لا يدلّ على الجاذبية، أليس كذلك؟؟وليس جذّاباً. ولكنْ، حالما أستطيع الخروج من هذا المكان الجهنميّ، وحالما أتمكنّ من الاجتماع بك مرة أخرى، سيحين موسمي للإزهار الثاني. إنَّ مجرَّدَ التفكير في الوجود معك بهدوء في المنزل نفسه، ساكناً مطمئناً يجعلني أُدرك أنني لو اجتزتُ الجحيمَ، فقد عرفتُ الجنة على الأرض، وأستطيع أنْ أعقدَ الأمل على معرفتها مرة أخرى. أنا وحش تعيس لو تطلَّعْتِ إليَّ الآن، بَيْدَ أنّي أؤمنُ بك. سوف تغفرين لي مظهري، وذلك وحده سيجعلني أشعر بأنني وسيم».

قرأتْ هذه الرسالة مرات عديدة. لم تكن خائفة من ندبته أو نظراته. سوف يزداد حبها له أكثر فأكثر.

كان قميصا الكونت عملاً هائلاً، منذ أنْ بدأتْ حياكةَ القمصان، على الرغم من أن خادمتها كانت قد ساعدتها أربعين مرة: بَيْدَ أنّها منذ أنْ بدأتْ حياكة القمصان اعتقدتْ أنَّ في مقدورها أن تستمر. كان لديها بعض خيوط الحرير المناسبة فقد كان زوجها يحب الملابس الداخلية الحريرية.

لكنها ظلت تستعمل كشتبان الكونت. كان ذهبياً من الخارج، وفضّياً من الداخل وثقيلاً جداً. كانت ثمة أفعى تلتف حول قاعدته، وعند الأعلى أُقْحِمَ حجرٌ أخضرُ نصفُ شفاف وتُفَّاحيُّ اللَّوْنِ وذلك لضغط الإبرة به. كان منحوتاً على شكل خنفسة سوداء بنقط قليلة، وربما كان من اليشب(*). كان ثقيلاً جداً، بَيْدَ أنَّها كانت تخيط ببطء

(*) اليشب: نوع من الحجارة الكريمة. المترجم.

شديد، وكانت تحب أن تحس بيدها ثقيلة وذات وزن. وعندما كانت تخيط، كانت تفكر في زوجها، وتحس أنها تحبه. كانت تفكر فيه، وكم كان وسيماً، وكيف ستحبه الآن وقد غدا نحيلاً: سيزدادُ حبُّها له أكثر فأكثر. ستحب أنْ تَتَتَبَّعَ عظامه وكأنها تتتبّع هيكله العظمي الحي. ودفعها التفكير إلى وضع يديها في حجرها والانسياق إلى الاستغراق في التفكير. ثم شعرتْ بثقل الكشتبان في إصبعها فخلعته، وجلست وهي تنظر إلى الحجر الأخضر.

الخنفساء المنقَّطة. الخنفساء المنقَّطة. وليت زوجها يعود حالاً، حالاً. لقد كان الاشتياق إليه هو ما جعلها مريضة جداً. ولا شيء سوى ذلك. كانت قد اشتاقت إليه إلى أبعدِ حَدّ. وهي مشتاقة الآن. آه، لو أنَّ في مقدورها أنْ تذهبَ إليه الآن، وتجده أينما كان، وتراه وتلمسه وتأخذ كل حبه.

وفيما راحت تستغرق في التفكير وضعت الكشتبان أمامها، وأخذت قلماً فضّيّاً صغيراً من سلة الخياطة، وعلى قطعة من الورق الأزرق، كانت شريطاً لشلّةٍ صغيرة من خيوط الحرير، كتبت أبيات الأغنية الصغيرة البسيطة:

Wenn ich ein Vöglein wär
Und auch zwei Flüglein hätt
Flög' ich zu dir –

كان ذلك كل ما استطاعت أن تستظهره على قطعة ورقها الزرقاء الباهتة:

«لو كنتُ عصفوراً صغيراً

وكان لديَّ جناحان صغيران

لِطِرتُ إليكَ......»

وهي أبيات بسيطة إلى ما فيه الكفاية بكل الوعي. ولكنها لم تترجمها، لذا لم تَبْدُ تماماً بسيطة جداً.

في تلك اللحظة أعلنت خادمتُها عن قدوم السيدة بينغهام، أختِ زوجها. وكوَّمَتْ دافني قطعة الورق في اضطراب، وفي اللحظة التالية دخلت بريمروز، أختُه. ولم تكن القادمة الجديدة تشبه زهرة الربيع(*) في شيء، فقد كانت طويلة الوجه، ذكية وبارعة، إلاَّ أنَّها لم تكن أنيقة المظهر على الإطلاق في ثيابها الجديدة. قالت:

– دافني العزيزة، يا له من مشهد منزلي. أعتقد أن هذا تدريب. حسناً، يمكنك أن تتدربي أيضاً، فهو مع الأميرال بيرنز على متن السفينة «أريادني». لقد سمع والدي ذلك من الأميرالية لتوِّه. وهو سليم العقل والجسم تماماً. وسوف يكون هنا في غضون يوم أو اثنين. إنَّ هذا رائع، أليس كذلك؟؟ وسوف تنتهي الحرب. هذا ما يبدو على الأقل. سوف تطمئنّين على رَجُلِكِ الآن يا عزيزتي. واشكري السماء عندما تنتهي كل هذه الأمور. ماذا تخيطين؟؟

قالت دافني:

– قميصاً.

– قميصاً؟؟ يا لذكائك!..لن أعرف أبداً من أيَّ طرف أبدأ. من عَلَّمَكِ؟؟

– ميليسنت.

(*) بريمروز كلمة تعني في الانكليزية « زهرة الربيع » المترجم.

- وكيف تَسَنَّى لها أن تعرف؟؟ لا شأن لها أن تعرف كيف تخيط قمصاناً، ولا وسائدَ الآرائكِ ولا الشراشف أيضاً. دعيني أنظر. عجباً، كم أنت رائعة تماماً!.. وكل قطعة منه خيطت باليد أيضاً. إنّ بازل غير جدير به يا عزيزتي. غير جدير به فعلاً. دعيه يأمر بإحضار قمصانه من شارع أوكسفورد. إنَّ مهمتك هي أن تكوني جميلة، لا أن تخيطي قمصاناً. أية دميةِ تزيينٍ صغيرةٍ أنتِ، أو بالأحرى أية خياطة إبرة أنتِ!.. أقول إن هذا هجاءٌ لنا. ولكنْ أيّة حبيبة بتنانيرَ من عِرْقِ اللؤلؤ(*) وإبَرٍ حبيبةٍ صغيرةٍ ذهبيةِ العيونِ في داخلها!.. لو فَكَكتِ رأسها لوجدتِها ملآى بالدبابيسِ والإبر. لكِ الأنوثة!.. تسألك أمي ألَنْ تأتي لتناول الغداء غداً؟؟ وألَنْ تأتي إلى منزل براسي لتناول الشاي معي هذه الدقيقة؟؟تعالي فثمة إنسانة عزيزة. لقد أحضرتُ سيارة أجرة.

وحزمت دافني عدة خياطتها بعضها مع بعض في فوضى.

وعندما حاولتْ أنْ تكمل عملها قليلاً بعد يومين لم تستطع العثور على كشتبانها. سألت خادمتها التي كان في وسعها أن تثق بها ثقة عمياء. ولكنَّ الفتاة لم تكن قد رأته. وبحثت عنه في كل مكان. وسألت ممرضتها، التي قد أصبحت الآن مديرة منزلها، كما سألت الخادم. كلا. لم يره أيُّ شخص. بل إنَّ دافني سألت حتّى أخت زوجها التي قالت:

- كشتبان يا حبيبتي؟؟ كلا. لا أذكر أنني رأيت كشتباناً. أذكر

(*) عِرْقُ اللؤلؤ: مادة صلبة ناعمة قزحية اللون تشكّل بطانة بعض الأصداف، وتُستخدم في صنع الأزرار والحلى. المترجم.

خيّاطةً صغيرة حبيبة كنت أعتقد أنها هجاء ثمين لنا نحن النساء. لم أرَ كشتباناً.

وراحت دافني المسكينة تستعجب ذلك مستغرقة في التفكير. لم تكن تريد أنْ تصدق أنه ضاع. كان مثل طلسم(*) بالنسبة إليها. وحاولت أن تنساه. وكان زوجها قادماً في غضون فترة قريبة جداً، قريبة جداً. ولكنْ لم يكن في وسعها أن ترفع نفسها إلى مستوى الفرح. كانت قد أضاعت كشتبانها. وكان الأمر وكأنَّ الكونت دايونيس اتّهمها بشيء في نومها، ولم تكن تعرف تماماً ما هو. ذهبت وكأنه قَدَرٌ، وعلى الرغم من أنها لم تكن فعلاً تريد الذهاب إلى «فويينيش هول »، إلاّ أنها ذهبت وكأنه قَدَرٌ، وكأنه حُكِمَ عليها بذلك. كان ذلك في وقت متأخر من الخريف وبعض الأيام الجميلة. كان ذلك اليوم هو آخر الأيام الجميلة. وأُخْبِرَتْ بأنَّ الكونت دايونيس كان في المنتزه الصغير يبحث عن كستناء.

ذهبت تفتش عنه. أجل، كان هناك ببذلته الزرقاء ينحني فوق الأوراق الصفر اللامعة المتساقطة من شجرة الكستناء العذبة، والتي كانت تحيط به كهالة متساقطة من الصَّفار اللامع ، تحت قدميه، فيما كان يضرب الأرض بقدمه شاحذاً عزيمته في البحث عن ثمار الكستناء. وبيديه السمراوين القصيرتين كان يسحب ثمار الكستناء الصغيرة ويضعها في جيوبه، بَيْدَ أنَّه عندما اقتربتْ منه قَشَّرَ ثمرة ليأكلها. كانت أسنانه بِيضاً وقوية . قالت:

(*) الطلسم: تعويذة تحمل خطوطاً وأعداداً سحرية يُزْعَمُ أنها تدفع الشر أو تجلب الحظ السعيد. المترجم.

- تُذَكِّرني بالسنجاب الذي يَدخِرُ للمستقبل في مخزن الشتاء.
- آه أيتها السيدة دافني. كنت أفكر ولم أسمعك.
- اعتقدتُ أنَّكَ كنت تجمع الكستناء، بل كنت تأكلها حتى.
ضحك قائلاً:
- أيضاً!..

كان يتحلّى بسحر مفاجئ داكن عندما كان يضحك كاشفاً إلى حَدٍّ ما عن أسنانه البيض الكبيرة. ولم تكن متأكدة تماماً فيما إذا كانت تجده بغيضاً بعض الشيء. قالت بطريقتها البطيئة والرنَّانة:
- هل كنتَ حقاً تفكر؟؟
- بصدق كبير.
- وألَمْ تكن تستمتع بالكستناء على الإطلاق؟؟
- كثيراً جدّاً. كالحليب العذب. ممتازة، ممتازة.

كانت بقايا ثمرة الكستناء بين أسنانه، وكان يقضمها بأناقة. قال:
- هَلاَّ أخذتِ واحدة أيضاً؟؟

وقدَّمَ لها ثمار الكستناء الصغيرة البنية المدببة على راحة يده. نظرت إليها بارتياب. قالت:
- هل هي خشنة كما كانت دائماً؟؟
- كلاَّ، إنها طازجة وطيبة. انتظري، سوف أقشّر واحدة لك.

وراحا يتجولان عبر مجموعة الأشجار الهزيلة. قال:
- لقد أمضيْتِ صيفاً ممتعاً. هل تشعرين بالقوة؟؟

قالت:
- أشعر بأنني قوية تماماً على وجه التقريب. كان صيفاً جميلاً.

أشكرك. أعتقد أنه من غير اللائق أن أسألك فيما إذا كنتَ سعيداً.

نظر إليها مباشرة وقال:

- سعيداً؟؟

كانت عيناه سوداوين، وبدا أنهما كانتا تتفحَّصانها. كانت دائماً تشعر أنه يُكِنُّ لها قليلاً من الازدراء. قال وهو يبتسم:

- أوه. أجل. كنتُ سعيداً جداً.

- أنا في غاية السرور.

وتوغَّلا في سيرهما قليلاً، والتقط ثمرةَ كستناءٍ خضراء خُضْرَةَ التفّاح من بين الأوراق البُنِّيَةِ الصُّفْرِ، وأمسكها بأصابع حساسة كانت لا تزال توحي بالمخالب بالنسبة إليها. قالت:

- كيف نجحتَ في الوصول إلى السعادة؟؟

- كيف لي أن أخبركِ؟؟ أحسستُ بأنَّ القوة نفسها التي شيَّدت الجبال تستطيع أن تخسفها ثانية، بِغَضِّ النظر عن المدة التي تستغرقها.

- وهل كان ذلك كل شيء؟؟

- ألم يكن ذلك كافياً؟؟

- سأقول أقلّ مما يكفي بلا جدال.

ضحك ضحكة عريضة كاشفاً عن أسنانه القوية الشبيهة بأسنان الزنوج. قال:

- لا تعرفين كل ما يعني ذلك.

قالت:

- التفكير بأن الجبال سوف تُخْسَفُ؟؟ سوف يحدث هذا بعد مماتي بوقت طويل جداً.

قال:

- آه. أنتِ تشعرين بالضجر. ولكنني..ولكنني وجدت الإلَهَ الذي يخسف الأشياء: لا سيما الأشياء التي يشيدها البشر. ألا يقولون أن الحياة هي بحث عن الإلَهِ أيتها السيدة دافني؟؟ لقد وجدتُ إلهي.

قالت شاحبةً:

- إله التدمير.

- أجل، وليس شيطان التدمير بل إلَه التدمير. إله التدمير المُبارَك. إنَّ هذا غريب.

وقف أمامها وهو يرفع بصره إليها وقال:

- ولكنّني وجدتُ إلهي. إله الغضب الذي يخسف أبراج الكنائس ومداخن المصانع. آه أيتها السيدة دافني، إنّه إله الإنسان إنّه إله الإنسان. لقد وجدتُ إلهي أيتها السيدة دافني.

- ظاهرياً. وكيف ستؤدّي له فروض الطاعة والولاء؟؟

وغيَّرتْ وجهَه التماعةٌ بسيطة. قال:

- أوه. سوف أكون ذا نفع. سأساعد بقلبي حين لا أستطيع أن أفعل شيئاً بيديّ. أقول لقلبي: اضربي أيتها المطرقة، اضربي بدقاتك الصغيرة. اضربي يا مطرقة الله، اضربيهم وامحقيهم. امحقي الأمور جميعاً.

وانعقد حاجباها، واتخذ وجهُها مظهرَ استياء. سألت بقسوة:

- تمحق ماذا؟؟

- العالَم، عالم الانسان، لا الأشجار كأشجار الكستناء هذه على سبيل المثال.

ورفع نظره إلى الأشجار، إلى باقات وأجنحة الصَّفَار السائبة. وقال:

- لا هذه ولا السناجب، هؤلاء السحرة المرتزقة، ولا الصقر الحوّام. لا هذه.

قالت:

- تقصد أن تمحق انكلترا؟؟

- آه. كلا. آه. كلا. لا انكلترا بحدٍّ يزيدُ عن ألمانيا وربما ليس مثلها. ولا أوروبا بحدٍّ يزيد عن آسيا.

- نهاية العالم فقط؟؟

- كلا، كلا، كلا، كلا. أيّة ضغينةٍ أُكِنُّ ضدَّ عالَم فيه ثمار الكستناء الصغيرة حلوة المذاق كهذه!.. هل أحببتِ الثمرة التي أخذتيها؟؟ هل لكِ في واحدة أخرى؟؟

- كلا. أشكرك.

- أية ضغينة أُكِنُّ ضدَّ عالَم فيه حتى الأسيجة تكتظّ بالعُلَّيْقِ، بعناقِيدَ من العليق الأسود الذي يتدلّى، والعلّيْقِ الأحمرِ الذي يُعَرِّش. لن أكره العالم أبداً، بل عالَم الإنسان أيتها السيدة دافني.

وانخفض صوته إلى درجة الهمس وهسهس قائلاً:

- أكرهه. ززززز......... اضرب أيها القلب الصغير!.. اضرب، اضرب، امحق واسحق!... أوه أيتها السيدة دافني.

واتسعت عيناه بحَلَقَةٍ من النار. قالت مرتاعة:

- ماذا ؟؟

- إنني أؤمن بقوة قلبي الأحمر الداكن. لقد وضع الله المطرقة في صدري. المطرقة الأبدية الصغيرة. اضربي، اضربي، اضربي!.. إنها تضرب عالم الإنسان. إنها تضرب، إنها تضرب!..وهي تسمع صوت التشقّق الرفيع. صوت التصدّع الرفيع. أنصتي!...

وقف ساكناً وجعلها تُصغي. كان الوقت أواخر الأصيل. وجعلتْ ضحكةُ وجههِ الغريبةُ الهواءَ يبدو قاتماً بالنسبة إليها. وكان في الإمكان أنْ تصدّقَ بسهولة أنها سمعت تصدُّعاً مرتعشاً دقيقاً وخافتاً عبر الهواء، ضجيج طقطقةٍ رقيقة.

- هل سَمِعْتِها؟؟ أجل؟ أوه، ليتني أعيش طويلاً!.. ليتني أعيش طويلاً بحيث يمكن لمطرقتي أن تضرب وتضرب، وتتعمق الشروخ أكثر فأكثر!.. آه، عالَم الإنسان!.. آه، يا للفرح ويا للعاطفة في كل ضربة قلب!.. اضرب داخلاً، اضرب بصدق، اضرب بتأكيد. اضرب لِتُدَمِّرَ. اضرب!.. اضرب!.. لِتُدَمِّرَ عالَم الإنسان. آه. أيهاالإله. آه أيها الإله ياأسير السلام. ألاَ أعرفكِ أيتها السيدة دافني؟؟ ألاَ أعرفكِ؟؟ ألاَ أعرفك؟؟

صمتتْ بضعة لحظات وهي تبتعد بنظراتها إلى أضواء متلألئةٍ صادرة عن محطة تقع على مبعدة.

قال:

- لا زنبقة جسمك البيضاء المقطوفة. لم أَجْنِ زهرةً طوال حياتي

المتباهية، ولكنَّ زنبقتك أيتها السيدة دافني تضرب جذورها في الظلمة الباردة. آه، أجل. ستعرفين أنني أعرف أين تكمن جذورك مدفونة بِلُبِّ حياتها الحزين، الحزين. وما الفرق !..

كانا قد تمشيا ببطء باتجاه المبنى . كانت صامتة، ثم قالت أخيراً بصوت غريب :

- وَأَلَنْ تريد أبداً أنْ تُقَبِّلَني ؟؟

أجاب بحدّة:

- آه. كلا .

قدَّمَتْ له يَدَهَا، وقالت على نحو متأنق :

- وداعاً أيها الكونت دايونيس .

انحنى فوق يدها إلاَّ أنَّه لم يُقَبِّلْها. قال:

- وداعاً أيتها السيدة دافني .

وابتعدتْ مقطَّبة الجبين. ومنذ ذلك الحين راحت تفكر في زوجها بازل فحسب. وتركت الكونت يتحرق شوقاً إليها. كان بازل قادماً، وكان قريباً. كان عائداً من الشرق، من الحرب والموت. آه، لقد مَرَّ بنار الخبرة الرهيبة. سيكون شيئاً جديداً، شيئاً لم تعرفه. وكان شيئاً جديداً، حبيباً أقوى مَرَّ بنارٍ مرعبةٍ، وخرج منها غريباً وجديداً كإله. آه، جديداً ومريعاً سيكون حُبُّه، ونقيّاً ومكثَّفاً بفعل نار المعاناة المريعة. حبيبٌ جديدٌ، عريسٌ جديدٌ، وليلةُ زفافٍ جديدة خارقةٌ للطبيعة.

وارتجفت مسبقاً وهي تنتظر وزوجها. قَلَّما أحسّتْ بالإثارة

المتوحّشة الناجمة عن الهدنة. كانت تنتظر شيئاً أكثر روعة بالنسبة إليها.

ومع ذلك تقلَّصَ قلبُها في اللحظة التي سمعتْ فيها صوتَه في الهاتف. كان صوتَه المشهورَ، المتروِّي، الخجول والمتشدِّقَ تقريباً بالإيحاء المهذب نفسه الذي ينمُّ عن الاحترام وبطريقة كامبريدج المبالَغ فيها إلى حدٍّ ما ارتفاعاً وانخفاضاً. ولكنْ كان ثمة اختلافٌ، نبرةٌ باردةٌ جديدة سَرَتْ في عروقها كالموت.

– هل هذه أنتِ يا دافني ؟؟ سأكون معكِ في غضون نصف ساعة. هل يناسبكِ ذلك ؟؟ أجل لقد وصلتُ لِتَوِّي، وسآتي مباشرة إليك. أجل، سيارة أجرة. هل سأكون مفاجئاً جدّاً لكِ يا حبيبتي ؟؟ كلا ؟؟ حسناً، أوه، حسناً !.. نصف ساعة إذن !.. ماذ أقول يا دافني ؟؟ لن يكون أيُّ شخص آخر هناك، أليس كذلك ؟؟ بمفردكِ تماماً ؟؟ حسناً !.. أستطيع أن أتَّصل بالوالد بعد ذلك. أجل، رائع، رائع. هل أنتِ متأكدة من أنكِ على ما يرام يا حبيبتي ؟؟ سأكون على عتبة الموت حتى أراك. أجل. وداعاً. نصف ساعة. وداعاً.

وعندما علَّقتْ دافني السمّاعة جلستْ فيما يشبه الإغماء. ماذا كان ذلك الشيء الذي أرعبها جِدّاً ؟؟ صوتُه المتغيِّر المُريع، المُريع كالفولاذ الأزرق البارد. ولم يكن لديها وقت للتفكير .

قَرَعَتِ الجرسَ تستدعي خادمتها .

وصاحت ميليسنت عندما لمحتْ سَيِّدَتَها شاحبةً كالموت:

– أوه يا سيدتي ليست أبناء سيئة ؟

- كلاّ. إنَّها أنباء حسنة. سيكون الرائد آبسلي هنا في غضون نصف ساعة. ساعديني على ارتداء ملابسي. اقرعي الجرس لموري أوَّلاً ليأمر بإحضار بعض الورود، الورود الحمر، وبعض أزهار السوسن ذات اللون الليلكي. دزّينتان من كلٍّ منهما حالاً

وذهبت دافني إلى غرفتها. لم تعرف ماذا ترتدي، ولم تعرف كيف كانت تريد لشعرها أن يتصفف. تحدثت بسرعة مع خادمتها اختارت فستاناً ذا لون بنفسجي. لم تكن تعرف ماذا كانت تفعل. ووسط عملية ارتدائها لملابسها وصلت الأزهار فغادرت لتضعها في المزهريات. لذا عندما سمعت صوته في قاعة الاستقبال كانت لا تزال تقف أمام المرآة وتضع أحمر الشفاه على شفتيها وتزيله مرة أخرى. وغمغمت الخادمة قائلة في انفعال :

- الرائد آبسلي يا سيدتي .

- أجل. أستطيع أن أسمع. اذهبي وأخبريه أنني سأكون لديه في غضون دقيقة .

كان صوت دافني قد أصبح بطيئاً ورنَّاناً كالبرونز كما كان يحدث عندما كانت تصاب بالاضطراب.

كان وجهها يبدو مُضْنىً تقريباً، وعبثاً راحت تمسُّه بأحمر الشفاه. سألت خادمتها باقتضاب عندما عادت:

- كيف يبدو ؟؟

قالت الخادمة:

- ندْبةٌ طويلة هنا .

وسحبت أصبعها من زاوية فمها اليسرى إلى خدها وعلى نحو

مائل باتجاه الأسفل. سألها دافني :

- هل تجعله يبدو مختلفاً جداً؟

قالت ميليسنت برقة:

- ليس مختلفاً جداً يا سيدتي. إنَّ عينيهِّكما هما على ما أعتقد.

كانت الفتاة أيضاً قد أُصِيبتْ بالأسى.

قالت دافني :

- حسناً.

وأَلقتْ على نفسها نظرة أخيرة طويلة عندما استدارت مبتعدة عن المرآة. وجعلها منظرُ وجهها تشعر بأنها مريضة تقريباً. كانت قد رأت جزءاً كبيراً من نفسها. ومع ذلك فقد شَلَّها الآن تَدَلِّي جفنيها المُعَرَّقين الليلكيين فوق عينيها الخضراوين المزرقَّتينْ الكبيرتين الغريبتين البطيئتين. كانت تبدوان مُكتَنَفَتَينْ بالأسرار. وألقت على نفسها نظرة جانبية طويلة غريبة وصِينية. كيف يمكن أن تكون ثمة مسحة صِينيَّةٌ في وجهها؟؟ إنها شقراء انكليزية صافية تماماً، هي أفروديايت (*) الزَّبَد كما سماها بازل في شعره. آه، حسناً، تخلت عن أفكارها وذهبت عبر القاعة إلى غرفة الاستقبال .

كان يقف على نحو عصبي في مختلف الغرفة ببذله. وألقت نظرة عجلى بالكاد على وجهه ورأت الندبة فحسب. قال بصوت مليء بالعاطفة المتوقعة:

أفروديت: إلهة الحب والجمال عند الإغريق وتُدْعى فينوس عند الرومان. المترجم.

- مرحباً يا دافني .

وتقدم إلى الأمام وأخذها بين ذراعيه وقَبَّلَ جبينها. قالت وهي تواري دموعها :

- في غاية السرور !.. إنني في غاية السرور لأن هذا حدث أخيراً.

سألها بأسلوبه المتأني :

- في غاية السرور لأيٍّ شيء يا حبيبتي ؟؟

- لأنك عُدْتَ .

وكان لصوتها رنين البرونز، وكانت تتحدث بسرعة إلى حَدٍّ ما.

- أجل، لقد عُدْتُ يا حبيبتي دافني. عُدْتُ بكل ما يمكن أحضاره من جسمي .

قالت:

- عجباً !.. لقد عُدْتَ بأكملكَ حتماً؟؟

كانت مرتاعة .

- أجل. لقد عُدْتُ ظاهريّاً بذلك. ظاهريّاً ولكن لا تدعينا نتحدث في ذلك. دعينا نتحدث عنكِ يا حبيبتي. كيف حالكِ ؟؟ دعيني أنظر إليكِ. أنت أكثر نُحولاً، وأكبر سِنّاً. ولكنكِ أروع من ذي قبل. أروع بكثير .

قالت:

- كيف ؟؟

- لا أستطيع أن أقول كيف تماماً. كنتِ مجرد فتاة. أما الآن فأنت امرأة. إنني أعتقد أن ذلك هو كل ما حدث. ولكنك رائعة

كامرأة يا حبيبتي دافني . أروع من كل ما حدث. لم يكن في مقدوري أن أصدّقَ أنك ستكونين رائعة إلى هذا الحد. كنتُ قد نسيتُ أو بالأحرى لم أعرف ذلك قط. أقول أنني رجل محظوظ فعلاً؛ها أنذا حيّاًوعلى ما يرام وقد حصلتُ عليكِ كزوجة. إن هذا يُظْهِرُكِ كزهرة. أقول يا حبيبتي أنَّ ثمة الآن ما هو أكثر من فينوس (*) الزَّبَدِ وأعظم. كم أنت جميلة !.. ولكنكِ تُشبهين جمال الحياة كلها، وكأنك أُمُّ قمرِ العالم، أفروديت. إنَّ الله طيب معي على الرغم من كل شيء يا حبيبتي. ولا يتحتم عليَّ أبداً أنْ أتفوَّهَ بكلمة تَذَمُّرٍ واحدة. كم أنتِ فاتنة، كم أنتِ فاتنة يا حبيبتي !.. كنتُ قد نسيتكِ، وكنتُ أحسبُ أنني عرفتكِ جيداً. هل تنتمين إليَّ حقّاً ؟؟ هل أنت حقّاً مُلْكِي ؟؟

كانا جالسينْ على الأريكة الصفراء وهو يمسك يدها، وكانت عيناه تصعدان وتنزلان من وجهها إلى حنجرتها وصدرها. وأثارها الصوتُ الكامنُ في كلماته والرغبةُ القويةُ الباردة الكامنةُ في صوته، وسَرَّها ذلك وجعل قلبَها يتجمد. استدارت ونظرت في عينيه الزرقاوين الفاتحتين. لم يعد فيهما ذلك الضوء اللاهي ولا النظرة الفتية .

كانتا تشتعلان بضوء قاسٍ مُرَكَّزٍ ومائل إلى البياض.

وتناهى صوته المهذب الموسيقيّ الذي كان دائماً يتَّسِمُ بمسحة الحياء الأصيلة:

- حسناً. أنتِ لي. أليس كذلك يا حبيبتي دافني ؟؟

(*) فينوس: إلهة الحب والجمال عند الرومان. المترجم.

وعادت إلى النظر في عينيه. قالت من شفتيها :

- أجل، أنا لَكْ.

فغمغم قائلاً وهو يقبِّلُ يدَها :

- يا حبيبتي !.. يا حبيبتي !..

وخفق قلبها فجأة على نحو مريع جدًّا، وكأنَّ صدَرها سوف يتفجَّر، ونهضت في حركة واحدة، وذهبت عبر الغرفة. أسندتْ يدها على رفِّ المستوقد ونظرتْ إلى النار الكهربائية في الأسفل، وكان في مقدورها أن تسمع ضوضاء النار الخافتة، الخافتة.

وساد الصمت لبضع لحظات .

ثم استدارت ونظرت إليه. كان يراقبها بتركيز. كان مُضْنى الوجه، وكان ثمة امتقاع غريب في اللون إلى أبعد حدٍّ على الرغم من أنَّ وجنتيه لم تكونا شاحبتين. وكانت الندبة تمتد مُزْرَقَّةً من جانب فمه. لم تكن كبيرة جداً بَيْدَ أنها كانت تبدو كندبة فيه هو نفسه، في عقله إذا جاز التعبير كان ذلك الضوء المُرَكَّزُ الأبيضُ القاسي الذي فَتَنَها. وكان مريعاً بالنسبة إليها. كان مختلفاً. كان كالموت، كالموت المبعوث. وشعرت بأنها لم تكن لتجرؤ على لمسه. كان الموت الأبيض لا يزال يخيِّمُ عليه، وكان في وسعها أن تدرك أنه كان يحفل، بنوع من الكرب ، من الاتصال .

- لا تلمسيني. لم أَرْتَقِ بعد إلى الله.

ومع ذلك كان قد جاء من أجل الاتصال. وكان يبدو أنَّ شيئاً ما، أنَّ شخصاً ما، كان ينظر من فوق كتفه، شبحه الفتي ينظر من

فوق كتفه. أوه، يا الله!.. أسبلتْ عينيها وقد بدا عليها الإغماء.

وبقي هو على الأريكة متكئاً نحو الأمام يراقبها. سألها :

– ألستِ على ما يرام يا حبيبتي ؟؟

كانت ثمة برودة غريبة مبهمة في ناره بالذات. ولم يتحرك ليدنوَ منها. قالت وقد أشاحت بوجهها عنه:

– أجل، أنا على ما يرام. إنَّ الأمر لا يعدو كونه مفأجاة لي قبل كل شيء. دعني أتعود عليك.

أحسَّتْ تمام الاحساس وكأنها ضحية وجههِ الرهيب الشاحب. قال:

– أعتقد أنني سَبَّبْتُ لكِ صدمة صغيرة. آمل أَلاَّ تتخلّي عن حبي. لن يكون الأمر هكذا، أليس كذلك ؟؟

يا للبرودة الغريبة في صوته !.. ومع ذلك يا للنار البيضاء الغريبة!..

واعترفت قائلة بنبرة خفيضة وكأنها خجلى تقريباً :

– كلا. لن أتخلى عن حبي لك.

لم تكن تجرؤ أن تقول غير ذلك. وجعل نُطْقُها بهذا الكلامِ هذا الكلامَ صحيحاً. قال :

– آه، إذا كنتِ متأكدة من ذلك فإنَّ منظري بغيض للناظرين إلى حدٍّ ما بندبة الحرب هذه، وأنا أعرف ذلك. ولكنْ ليتكِ تستطيعين أن تغفري لي يا حبيبتي. هل تعتقدين أن ذلك في مقدورك ؟؟

كان ثمة ما يشبه الإكراه في نبرته .

نظرت إليه وارتعشت على نحو طفيف، وقالت بسرعة:

- أحبكَ أكثر من ذي قبل.

وتناهى صوته المريع متسائلاً:

- وحتى الندبة ؟؟

وألقت نظرة عجلى مرة أخرى، بتلك النظرة الجانبية الصينية البطيئة، وشعرت بأنها سوف تموت. قالت وهي تبتعد بنظراتها إلى الفراغ :

- أجل .

كانت لحظة مريعة بالنسبة إليها. واتسعت على وجهه ابتسامةٌ صغيرةٌ معتوهةٌ طفيفة. وفجأة ركع عند قدميها، وقبّل أصبعَ قدمها الكبرى داخل الشبشب، وقبّلَ مِشْطَ قدمها، وَقَبّلَ كاحلها الموجودَ تحت الجورب الأسود الرقيق. قال بصوت مكتوم :

- كنتُ أعرف. كنتُ أعرف أنكِ ستكونين طيبة. كنت أعرف أنني إذ كان يتحتم عليَّ أن أركع فيجب أن أركعَ أمامك. كنت أعرف أنكِ كنتِ إلهيَّةَ الصفاتِ، أنكِ كنتِ سيبيل(*)، إيزيس(**). كنتُ أعرف أنني كنتُ عبدَكِ. كنتُ أعرف. كانت تلك الأمور كلُّها مجرَّد شعائر منذ عهد بعيد، وكان يتحتم عليَّ أن أتعلّمَ كيف أعبدك .

وقبّل قدميها مراراً وتكراراً بلا أدنى وعي ذاتي أو بلا أدنى ريبة، ثم عاد إلى الأريكة وجلس هناك وهو ينظر إليها قائلاً:

(*) سيبيل: إلهة الطبيعة عند شعوب آسيا الصغرى. المترجم.

(**) إيزيس: إلهة الأمومة والخصب عند المصريين القدامى. المترجم.

- هذا ليس حُبّاً. إنه عبادة سيكون الحب بيني وبينك يا دافني سِرّاً مُقَدَّساً. ذلك ما كان يتحتم عليَّ أنْ أتعلَّمه. أنتِ وراء متناول يدي. لغزٌ بالنسبة إِلَيَّ. يا إلهي ما أعظم الأمر كله !.. ما أروعه !..
وقفت ويدها على رف المستوقد وهي تخفض بصرها دون إجابة. كانت مرتاعة ومرعوبة تقريباً: إلاَّ أنَّها كانت مُستثارةً في أعماقها حتى روحها. وشعرت فعلاً أنَّ في مقدورها أنْ تتوهج بالبياض وتملأ الكون كالقمر، كَعَشْتَرُوت(*)، كإيزيس، كَفِينوس(**). عظمة قوتها القديمة. لقد عبدها الرجل دينيّاً، وليس عاطفياً فحسب. وكانت جاهزة له، لِسِرِّ عبادته السامية المُقَدَّس.

كان يجلس على الأريكة وقد مدَّ يديه على القماش المُقَصَّب الأصفر، وراح يدفعهما إلى الأسفل خلفه، نزولاً بين التنجيد العميق الكامن في ظهر الأريكة والمقعد. كانت ذراعاه طويلتين بيضاوين بنَمَشٍ باهت.. ولمست أصابعه شيئاً ما. وراح يتلمّس بأصابعه البيض الطويلة هذا الشيء، وأخرجه. وكان الكشتبان المفقود. وبداخله كانت قطعة الورق الزرقاء المُلَوْلَبَة. سألها:

- عَجَباً: هل هذا كشتبانك ؟؟

أُجْفِلَتْ، وتقدّمتْ بسرعة إلى الأمام من أجله. قالت مهتاجة:

- أين كان ؟؟

ولكنه لم يُعْطِها إياه. قَلَّبَهُ وسحب قطعة الورق الزرقاء. ورأى

(*) عَشْتَرُوت: إلهة الخِصب والحبّ عند الفينيقيّين. المترجم.

(**) فِينوس : إلهة الحب والجمال عند الرومان. المترجم.

علامات قلم الرصاص الباهتة على الكرة المضغوطة، وبسط قطعة الورق وراح يفك ببطء مغالق الشعر:

Wenn ich ein Vöglein wär,
Und auch zwei Flüglein bätt
Flög' ich zu dir –

قال:

– كم هو مؤثر إلى حدٍّ مريع!.. عصفور بجناحين صغيرين. ولكنْ أيّة طفلة عزيزة ثمينة أنتِ!.. إلى مَنْ أردْتِ أنْ تطيري لو كُنْتِ عصفوراً؟؟

رفع بصره إليها بابتسامة فضولية. قالت وهي تشيح بوجهها جانباً:

– لا أستطيع أنْ أتذكر.

قال:

– آمل أن تكوني قد أردت الطيران إليّ. على أية حال، سأعتبر الأمر كذلك وسأزداد حُبّاً لكِ من أجل ذلك. يا لك من طفلة عزيزة!.. عصفور، إنْ شئتَ، بجناحين صغيرين!.. عجباً، كم هذا مضحك منكِ على نحو جميل يا حبيبتي!..

طوى قصاصة الورق بعناية، ووضعها في دفتر جيبه تاركاً الكشتبان طوال الوقت بين ركبتيه.

قال وهو يفحص هذه الحلية:

– أخبريني متى أضعتيه يا دافني؟؟

– قبل حوالي شهر أو شهرين.

- قبل حوالي شهر أو شهرين. وماذا كنت تخيطين؟؟هل يزعجكِ أن أسأل؟؟أحب أن أفكر فيكِ عندئذ. كنت لا أزال في «الهاسرن » البغيض ذلك. ماذا كنت تخيطين يا حبيبتي قبل شهرين عندما أضعتِ كشتبانك؟؟

- قميصاً.

- عجباً!.. قميص!.. لِمَن؟؟

- لك.

- لحظة. ها قد وصلنا. هل كنتِ حقاً تخيطين قميصاً لي؟؟ هل انتهى؟؟ هل أستطيع أن أرتديه في هذه الدقيقة؟؟

- ذلك القميص لم ينته، ولكنَّ القميص الأول انتهى.

- أقول يا حبيبتي دعيني أذهب وألبسه. يالروعة التفكير في أنني سأرتديه فوق جلدي مباشرة!.. سأشعر بكِ كلّكِ فوقي. أقول كم سيكون ذلك رائعاً!.. ألن تأتي؟؟؟

قالت:

- ألن تعطيني الكشتبان؟؟

- أجل، طبعاً. ويا له من كشتبان مهيب أيضاً!.. من أعطاكِ إياه؟؟

- الكونت دايونيس بسانيك.

- ومن يكون.

- كونت بوهيمي في درسدن. أقام مرة عندنا في « ثورزوي » مع زوجة طويلة. ألم تقابلهما؟؟

- لا أعتقد أنني قابلتهما. لا أعتقد أنني قابلتهما. لا أتذكر. كيف كان شكله؟؟

– رجل صغير البنية بشعر أسود وجبهة داكنة خفيضة إلى حدٍّ ما. وهو متأنق نوعاً ما.

– كلا. لا أتذكره على الإطلاق. إذن أعطاكِ إيّاه. حسناً، إنني أتساءل أين هو الآن؟؟ من المحتمل أن يكون هذا الشيطان المسكين قد فَنِيَ.

– كلا. إنه مُعْتَقَل في « فوينيش هول ». لقد ذهبتُ مع أمي عدة مرات لمقابلته. كان قد جُرِحَ جرحاً بليغاً مريعاً.

– يا للشحاذ المسكين الصغير!..في « فوينيش هول »!..سألقي نظرة عليه قبل أن يذهب. شيء غريب أن يعطيك كشتباناً. يا لها من هدية غريبة!..مع أنكِ كنتِ فتاة وقتها. هل تظنين أنه أوصى بصنعه أم تظنين أنه وجده في متجر؟؟

– أعتقد أنه كان يخص العائلة. الخنفساء المُنَقَّطَةُ الموجودة في أعلاه هي جزء من شعارهم، والثعبان أيضاً على ما أعتقد.

– خنفساء مُنَقَّطَة!.. يا له من شعار مُضحك. يسميها الأمريكيون بَقَّة. يجب أن ألقي نظرة عليه قبل أن يذهب. وكنت تخيطين قميصاً لي!..ثم أَوْدَعْتِ لي هذه الرسالة الصغيرة داخل الأريكة. حسناً، أنا في غاية السرور لأنني استلمتها، ولأنها لم تَضِعْ في البريد مثل أشياء كثيرة جداً. «لو كنتُ عصفورةً صغيرةً». أنتِ، أيتها الطفلة الكاملة!.. ولكنْ هذا هو جمال امرأة مثلك: أنت غاية في الجلال، وفوق مستوى العبادة، وعلاوة على ذلك طفلة بسيطة مرهفة الحساسية. من يستطيع التوقف عن عبادتكِ وحبكِ!..خالدة وفانية في الوقت نفسه. ماذا ؟ أتريدين الكشتبان؟؟ ها هو!..يا للأنامل البيض الرائعة، الرائعة. آه يا

حبيبتي، أنت إلهةٌ أكثر مِمَّا أنتِ طفلة، أنتِ يا إيزيس الطويلة الرشيقة ذات اليدين المُقَدَّسَتَيْنْ. بيضاء، بيضاء وخالدة!..لا تقولي لي أنَّ يديكِ يمكن أن تموتا يا حبيبتي: أناملك البرسيفونية(*) الرائعة. إنها خالدة كشهر شباط وقطرات الثلج. لو رفعتِ يديكِ لَحَلَّ الربيع. لا أستطيع الامتناع عن الركوع أمامكِ يا حبيبتي. لستُ أكثرَ من قربان لكِ. ذبيحة لك. أتمنى أن أتفانى في منح نفسي لكِ، وأن أمنحكِ دمي كله على مذبحكِ إلى الأبد.

رمقتْهُ بنظرة بطيئة طويلة عندما أدار وجهه إليها. كان وجهه قد ابْيَضَّ من النشوة. ولم تكن خائفة. وفي مكان ما عرفت بمرارة أنَّ ذلك كان سخيفاً. بَيْدَ أنَّها اختارت ألاّ تعرف. وخَيَّمَ عليها نعاسٌ كالخَدَر. وبعينيها الخضراوين المُزْرَقَّتَيْنْ البطيئتينْ خفضت بصرها إلى وجهه المُبْحِرِ في النشوة، والعَذْب تقريباً. ولكنها ودونما وعي أمسكت الكشتبان بسرعة بيدها اليمنى وأعطته يدها اليسرى فحسب. أخذ يدها ونهض على قدميه بتلك النشوة الكهنوتية الغريبة التي جعلته أكثر من رجل أو جنديّ، بل أكثر، وأكثر بكثير، من عاشق بالنسبة إليها.

ومع ذلك جعلتها عودته إلى الوطن تبدأ في الاعتلال مرة أخرى. بعد ذلك، بعد حبه، كان يتحتم عليها أن تحمل نفسها في العذاب. كانت تعرف، على نحو سَبَّبَ لها الخجل والكآبة، أنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية، أو نقية بما فيه الكفاية، كي تتحمل رغبة العبادة المتدفقة

(*) برسيفونا: زوجة هادس، إله العالم السفلي، وكان قد اختطفها من أمها ديمترا واتخذها زوجة تحكم معه مملكة الجحيم وتصعد إلى سطح الأرض في كل عام لتمنح الخصوبة للنباتات: المترجم.

المريعة هذه. ولم يكن الخطأ خطأها عندما أحست بالضعف والاضطراب بعد ذلك، وكأنها كانت تريد أن تبكي وأن تكون نَكِدَةً ومشاكسة، وأنْ ينقذَها أحدٌ ما. لم يكن في مقدورها أن تلتفت إلى بازل، زوجها. بعد بُحْرَانِهِ في رغبة العبادة إزائها نفرتْ منه. وواحسرتاه، لم تكن الإلهةَ والإنسانةَ الجليلة التي سمَّاها. كانت قد تَصَدَّعَتْ بفعل تواضع سِنّها القَدَرِيّ.

ولم يكن في وسعها أن تُقَسِّيَ قلبها وتحرق روحها لتطهرها من هذا الاتِّضاع، من هذا الهاجس. ولم يكن في وسعها أخيراً أن تؤمن بألوهيتها الأنثوية، بل بفنائها الأنثويِّ فحسب.

وواحسرتاه، لم يكن في وسعها ضبط تلك القوة الضارية الناجمة عن كونك بمفردك، حتى لو كنت مع مَنْ تُحب، القوة الضارية لامرأة في تفوقها. كان في وسعها، في الوقت الراهن، أن تَرْقَى إلى الأوج، إلى الأنوثة الساطعة الفائقة الضارية ضراوة القمر. إلاَّ أنَّها، مع الأسف، لم تكن لتستطيع البقاء مُكَثَّفَةً ومتألقةً في قواها الأنثوية البيضاء وغموضها الأنثويّ. واسترخت. فقدت عظمتها وأصبحت مضطربة. مضطربة ومريضة وما من سبيلٍ أبداً إلى تهدئتها. وعندئذ، وعلى نحو طبيعي، صار زوجها شاحباً ولاذعاً إلى حَدٍّ ما، فيما كانت تتحرَّق بالهستريا، ولم يكن في وسعها أن تأكل.

وطبعاً بدأت تحلم بالكونت دايونيس: أنْ تتوق إليه بحزن. وكان التفكير في أنه على وشك الرحيل شيئاً مميتاً بشكلٍ مطلقٍ بالنسبة إليها. وعندما فَكَرتْ في ذلك، في أنه سوف يغادر انكلترا قريباً، مبتعداً في الظلام إلى الأبد، بدا لها وقتئذ أنَّ الشرارة الأخيرة فيها سوف تموت.

وشعرت بأن روحها تفنى، بينما كانت هي نفسها مرهَقَة وفاقدة الروح مثل عاهرةٍ. إلهة عاهرة. وزوجها، كاهنها الهزيل الشاحب المكثَّف الذي لم يَكُفّ قَطّ عن كونه أمامها كالشبق. قالت له وقد استجمعت شجاعتها الأخيرة وألقت عليه نظرة جانبية:

– أريد الذهاب إلى « فوينيش هول » غداً.

– ماذا؟ لتقابلي الكونت بسانيك؟؟ أوه، حسناً. أجل، حسناً جداً. سآتي معكِ أيضاً. لَشَدَّ ما أرغب في رؤيته. أعتقد أنه سيتم إعادته قبل مُضِيّ وقت طويل.

كان قد بقي أسبوعان على عيد الميلاد، وكان الطقس قاتماً جداً. كان زوجها يرتدي الكاكي وكانت هي مُتَلَفعَةً بفرائها الأسود وخِمَارٍ ذي رباط أسودَ فوق وجهها، بحيث بدت غامضة المظهر. لكنها رفعت الخمار وقَلَبَتْهُ إلى الوراء بحيث شَكَّلَ إطاراً لوجهها. وبدت جميلة جداً بذلك، بوجهها النقي كأشدِّ أزهار «الخَرْبَق »[*] بياضاً وقد مسَّهُ اللون القرمزيُّ الشتائي وسط سواد ثيابها وفرائها. بَيْدَ أنَّها كانت تشبه، وإلى حدٍّ بعيد، صورة حسناء عصرية بالأحرى: شيئاً حقيقياً إلى حد بعيد. كانت تراودها فكرة غير كاملة بأن دايونيس سوف يكرهها بسبب فتنتها المؤثِّرة. سوف يراها ويكرهها. وكانت هذه الفكرة كبلسمٍ مُرٍّ بالنسبة إليها. وفيما يتعلق بها هي كانت تحب فتنتها إلى درجة الهاجس تقريباً.

تقدَّمَ الكونت بحذر إلى الأمام وهو ينقّلُ الطَّرْفَ من هيئة السيدة

(*) الخربق: عشب جميل الزهر. المترجم.

دافني الجميلة إلى الرائد الهزيل ذي المحتد الكريم الواقف إلى جانبها. كانت دافني جميلة جدّاً في فرائها الأسود وقد رُفِعَ رباط خمارها الأسود إلى الخلف فوق قبعتها المُلْتَزَّةِ بإحكام والمنسوجة من خيوط ذهبية باهتة، وبوجهها الأشقر كزهرة شتائية في شِقٍّ من شقوق الظلام. ولكنْ، وعلى وجهها الذي كان يتسم برضىً ذاتي بطيءٍ بالجمال ومعرفةِ أنها كانت تُدَلِّي الرَّجُلَيْنِ وتُبقي الضباط الأسرى كلهم في حالة يقظة على نحو عاصف، استطاع الكونت أن يقرأ لذع الامتعاض والعجز. وابتعد بنظره إلى الندبة المُزْرَقَّةِ الكائنة على وجنة الرائد.

– أيها الكونت دايونيس: أردتُ أنْ أحضرَ زوجي ليراك. هل يمكنني أن أقدمه لكَ؟؟ الرائد آبسلي، الكونت دايونيس بسانيك.

تصافح الرجلان بشكل رسمي إلى حدٍّ ما. قال بازل بطريقته البطيئة السهلة:

– أستطيع أن أتعاطف معكَ لكونكَ أسيراً في هذا المكان. كنتُ أكره ذلك، وأؤكد لكَ، عندما كنتُ هناك في الشرق.

ابتسم الكونت قائلاً:

– ولكنَّ أحوالَكَ كانت أسوأ بكثير من أحوالي.

– حسناً، ربما كانت كذلك. ولكنَّ السجنَ هو السجن حتى لو كان الجنَّةَ ذاتَها.

ابتسم الكونت قائلاً:

– لقد كانت السيدة آبسلي ملاك جنتي الوحيد.

قالت:

- أخشى أن أكون عديمة الفاعلية كمعظم الملائكة.

ولم تبرح الابتسامة قط وجه الكونت الداكن. كان ما قالته صحيحاً، إذْ كان خفيض الجبهة، وقد نما الشعر منخفضاً عليها، وكان حاجباه يُشكّلان قوساً كثيفاً فوق عينيه الداكنتين واللّتينْ كان لهما بدورهما أهداب سود طويلة إلى درجة أنَّ الجزء العُلْويَّ من وجهه كان يبدو أسودَ غسقيّاً. كان أنفه صغيراً ونصف شفاف إلى حدٍّ ما. وكان ثمة مسحة من السخرية تحيط به، وقد تكثفت حتى، بقامته الصغيرة النشيطة.

كان لا يزال حسن الهندام ببذلته الزرقاء الداكنة التي لم تستطع رداءتُها أن تعيق لهيب الحياة القاتم والذي بدا أنه يتوهج من جسمه عبر القماش. لم يكن نحيل القوام بَيْدَ أنه كان مع ذلك ذا جِلْدٍ داكن البشرة، غريب، ونصف شفاف في وجهه ذي الجبهة المنخفضة.

قال ضاحكاً وهو يرنو إليها بعينين داكنتين مستريبتين:

- وماذا في وسعكِ أن تكوني أكثر مما كنتِ عليه؟؟

أجابت وقد أسبلت عينيها وأشاحت بوجهها جانباً:

- أوه، طبعاً ملاك منقذ. بطلة سينمائية.

وكان الرائد الطويل ذو الوجه الأبيض يراقب الرجل الصغير طيلة الوقت بتَمَعُّنٍ ثابت نصف مبتسم. وبدا أن الكونت لاحظ ذلك، فالتفت إلى الرجل الانكليزي قائلاً:

- إنني مسرور لأنَّ في مقدوري أنْ أهنئكَ أيها الرائد آبسلي على

عودتكَ السعيدة والسالمة إلى وطنك.

- أشكرك. آمل أن أكون قادراً على تهنئتك بالطريقة نفسها قبل مضي وقت طويل.

قال الكونت:

- أوه. أجل. سوف أُشْحَنُ إلى وطني قبل مضي وقت طويل.

قاطعته دافني قائلة:

- هل تلقيتَ أية أنباء عن عائلتك؟؟

أجاب باختصار وبرزانة مفاجئة:

- لا أخبار عنهم.

قال بازل:

- يبدو أنك سوف تجد مأزقاً كبيراً بعض الشيء في هنغاريا.

- أجل، من المحتمل ذلك. هذا ما كان يتحتم علينا أن نتوقعه.

قال الرائد:

- حسناً. لا أعرف. تسير الأمور أحياناً نحو الأفضل فعلاً. أعتقد أن هذا القول كان في الواقع صحيحاً في حالتي.

قال الكونت بنبرة استعلام مهذبة:

- هل اتضح أن أمورك سارت نحو الأفضل؟؟

قال بازل:

- أجل، ولكنْ معي شخصياً فقط. أقصد لو تحدثنا من وجهة نظر أنانية. قبل كل شيء، ما تعلمناه هو أن الإنسان يستطيع أن يتحدث بالنيابة عن نفسه فحسب. وأشعر بأن الأمر كان مريعاً، إلاَّ أنَّ زمام

الأمور لم يفلت. كان الأمر أشبه بمحنة يتحتم على المرء أن يجتازها.

- تقصد الحرب؟؟

- الحرب وكل ما رافقها من أمور.

سأل الكونت بتهذيب:

- ومتى مررتَ بالمحنة؟؟

- تصل إلى حالة أعلى من الوعي، وبالتالي من الحياة. وهكذا، طبعاً، إلى مستوى أعلى من الحب. مستوى أعلى من الحب بشكل مذهل لم تشتبه قط بوجوده من قبل.

نَقَّلَ الكونت نظره من بازل إلى دافني التي كانت تضع رأسها وضعيةً خجلى نوعاً ما. قال:

- إذنْ، كانت الحرب في الواقع شيئاً ثميناً.

صاح بازل:

- بالضبط!.. فأنا الآن رجل آخر.

تساءل الكونت قائلاً:

- والسيدة آبسلي؟؟؟

اتجه زوجها إليها على نحو كامل قائلاً:

- أوه. إنها امرأة أخرى تماماً، أكثر روعة، وأكثر إعجازاً.

ابتسم الكونت وانحنى بشكل طفيف قائلاً:

- عندما عرفناها قبل عشر سنوات كان يتحتم علينا أن نقول عندئذ أنه كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تكون أكثر روعة.

أجاب الزوج:

- أوه. تماماً. إنَّ ذلك يبدو مستحيلاً دائماً. والمستحيل هو ما يحدث دائماً. في الحقيقة أعتقد أن الحرب قد فتحت دائرةَ حياةٍ أخرى لنا، دائرةً أوسع.

قال الكونت:

- قد يكون الأمر كذلك.

نظر الرائد باهتمامه الأبيض العارم إلى وجه الرجل الآخر الداكن ذي الجبهة المنخفضة، وقال:

- أَلاَ تشعر أنت نفسك بأن الأمر كذلك؟؟

نظر الكونت إلى دافني وهو يبتسم، وقال:

- أنا لا أزال أسيراً ايها الرائد، لذا أشعر بأن دائرتي صغيرة تماماً.

- أجل، طبعاً تشعر بذلك. طبعاً. حسناً. آمل فعلاً أَلاَّ تبقى أسيراً لفترة أطول. لابد وأنك تتحرق إلى العودة إلى بلدك.

ابتسم الكونت قائلاً:

- أجل. يسعدني أن أكون حُرّاً. وسوف أفتقد سجني وزيارات الملائكة لي أيضاً.

حتى دافني لم تكن متأكدة من أنه كان يهزأ منها. كان واضحاً

أن الزيارة لم تكن سارة بالنسبة إليه. وكان في مقدورها أن تلاحظ أنه لم يحب بازل. بل وما هو أكثر من ذلك: كان في مقدورها أن تشعر بأن وجود زوجها المثالي الطويل الهزيل كان بغيضاً بالنسبة إلى الرجل الصغير ذي البشرة الداكنة. ولكنه تجاوز ذلك كله بالابتسامات والأحاديث المهذبة.

من ناحية أخرى بدا بازل وكأنه مفتون بالكونت. كان يراقبه بانهماك طيلة الوقت وقد نسي دافني تماماً. وعرفت ذلك. عرفت أنها تلاشت تماماً من وعي زوجها، كمصباح حُمِلَ إلى غرفة أخرى. ها هو يقف هناك في الظلمة تماماً، طالما كانت هي المعنية، وقد تركز انتباهه بأكمله على الرجلِ الآخر. وعلى وجهه الشاحب الهزيل ارتسمت ابتسامة اهتمامٍ لاهٍ ثابتة. قال:

– ولكنْ، أَلاَ تشعر بالضجر المريع في فترات ما بين الزيارات ؟؟

رفع الكونت بصره بميل إلى الصراحة وقال:

– كلا. لا أشعر بذلك. أستطيع أن أطيل التفكير، على ما ترى، في الأمور التي تحدث.

أجاب الرائد:

– أعتقد أن ذلك هو المكان الذي يَلِجُ منه الأذى. يجلس المرء ويطيل التفكير، وينقطع عن كل شيء، ويفقد اتصاله بالواقع. ذلك هو التأثير الذي تركه الأمر عَلَيَّ عندما كنتُ أسيراً.

– الاتصال بالواقع، ماذا يعني ذلك؟؟

– حسناً. الاتصال بأيٍّ شخص في الواقع، أو بأيٍّ شيء.

– ولماذا يتحتم على المرء أن يقوم بالاتصال؟؟

قال بازل:

– حسناً. لأنّ على المرء أن يفعل ذلك.

ابتسم الكونت ببطء وقال:

– ولكنني أستطيع أن أجلس وأراقب القدر وهو ينساب، كالماء الأسود، عميقاً داخل روحي. أشعر بأن أشياء تحدث هناك في عتمة روحي.

– قد يكون ذلك، ولكنْ مهما حدث فثمة شيء واحد فقط في الواقع. إنه اتصال بين روحك وبين روح كائن آخر أو كائنات أخرى كثيرة. لا شيء سوى ذلك يمكن أن يحدث للإنسان. تلك هي الطريقة التي حسبتها بها لنفسي. قد أكون مخطئاً، إلاّ أنَّ تلك هي الطريقة التي حسبتها بها عندما جُرِحْتُ وأُسِرْتُ.

وأصبح وجه الكونت داكناً وجِدّياً. سأل قائلاً:

– ولكنْ هل هذا الاتصال هدف بحد ذاته؟؟

قال الرائد الذي كان قد حاز على شهادة في الفلسفة:

– حسناً. يبدو الأمر لي على هذا النحو. وهو يؤدّي على نحو محتوم إلى شكل من أشكال النشاط. ولكنَّ السبب والمنشأ وزخم الحياة الكامن في جميع الأعمال والنشاطات، سواء كانت بَنَّاءَةً أم تدميرية، تبدو كلها بالنسبة إليَّ كامنة في الاتصال الديناميكي بين الكائنات البشرية. أنت تسبب اتصالاً ديناميكياً ما بين الرجال فتحصل

على الحرب. تسبب نوعاً آخر من الاتصال الديناميكي فتجعلهم جميعاً يبنون كاتدرائية، كما كانوا يفعلون في العصور الوسطى.

قال الكونت:

– ولكنْ أَلَمْ تكون الحرب أو الكاتدرائية هي الهدف الحقيقي، والاتصال العاطفي هو الوسيلة؟؟

قال الرائد وقد بدأت عاطفته الغريبة البيضاء تتألق عبر وجهه:

– لا أعتقد أن الأمر كذلك.

كان الثلاثة يجلسون في غرفة صغيرة من غرف لعب الورق، وقد تركهم الرجال الآخرون بمفردهم من باب الكياسة.

كانت دافني لا تزال مكسوة بملابسها الداكنة التي كانت تليق بها كثيراً. إلاّ أنّها، وواحسرتاه، كانت تجلس الآن وقد تجاهلها كِلاَ الرجلين. بل يمكن اعتبارها نكرة صغيرة دميمة لو وضعنا قَيْدَ الاعتبار الانتباه الذي أولِيَ بها. كانت تجلس على مقعد النافذة في الغرفة الصغيرة الكئيبة، وقد رانت نظرةُ استياءٍ على وجهها النادر الغريب الذي كان يشبه زهرةَ دفيئةٍ قرنفلية وبيضاء ناعمة. ومن حين إلى آخر كانت تُنَقِّلُ نظرات طويلة بطيئة من رجل إلى آخر: من زوجها الذي كان وجهه المتألق الأبيض المُكَثَّف والشاحب مضغوطاً إلى الأمام عبر المنضدة إلى الكونت الذي كان يسند ظهره إلى كُرْسِيِّهِ وكأنما هو على تَضَادٍّ معه، وقد انضم وجهه الداكن بأكمله في نظرة محدقة قاتمة معارضة. كان زوجها غافلاً تماماً عن أيّ شيء سوى هويته البيضاء الخاصة، بينما كان الكونت لا يزال يحظى بنوع من الوعي الثانوي،

الذي كان يحوم حولهم، وقد بقي مدركاً المرأةَ الجالسةَ على مقعد النافذة. كان وجهه بأكمله واهتمامه المُنْصَبُّ إلى الأمام مُرَكَّزَيْنِ على بازل. ولكنه، في مكان ما من خلفيته، كان يحتفظ بأثر من دافني. كانت تجلس قلقة في استياء، كما تجلس النساء دائماً عندما ينغلق الرجال على أنفسهم في خِضَمِّ الكلمات. وفي الوقت نفسه كانت تتابع النقاش. ومن الغريب أنها في الفترة التي كان فيها تعاطفها ينحاز إلى الكونت في تلك اللحظة، كان زوجها هو صاحب الكلمات التي كانت تعتقد أنها صحيحة. كان الاتصال، الاتصال العاطفي، هو الأمر الحقيقي، أما « الهدف » المزعوم فقد كان نتيجة جانبية. كانت حتى الحروب والكاتدرائيات، في مخيلتها، نتائج جانبية فحسب. كان الأمر الحقيقي هو القاسم المشترك الكائن بين المحاربين وبين بَنَّائي الكاتدرائيات كشعور مُوَحِّدٍ عظيم: الشيء الذي كانوا يُضْمِرُونَه كلٌّ نحوَ الآخر، ونحو نسائهم على وجه الخصوص طبعاً.

قال دايونيس:

– ومع ذلك ثمة أنواع كثيرة وعظيمة من الاتصال.

قال الرائد:

– حسناً. هل تعرف أنه يبدو لي أن ثمة اتصالاً سامياً وحيداً وحقيقياً وهو اتصال الحب. لاحظ أنَّ الحب يمكن أن يتخذ تنوعاً لا نهائياً من الأشكال. وفي رأيي ليس ثمة شكل خاطئ من أشكال الحب، طالما أنه حب، وطالما أنك نفسك تُبَجِّلُ ما تفعله. للحب تنوع رائع في الأشكال. وذلك هو كل ما هو موجود في الحياة كما يبدو لي. ولكنني أوافقك على أنكَ لو أنكرْتَ تنوع الحب، لأنكرْتَ الحب

بأكمله. ولو حاولت أن تخصص الحب في مجموعة واحدة من الأحاسيس المقبولة، لجرحتَ روح الحب بالذات، ينبغي أن يكون متعدد الأشكال، وإلاَّ لأصبحَ مجرد استبداد، مجرد موت.

قال الكونت:

– ولكنْ لماذا تسمي كل ذلك حباً؟؟

– لأنه يبدو لي أنه الحب: القوة العظيمة التي تجمع الكائنات البشرية بعضها إلى بعض، بصرف النظر عمَّا يمكن أن تكون نتيجة الاتصال. طبعاً ثمة كراهية، إلاَّ أنَّ الكراهية هي انكفاء الحب فحسب.

سأل دايونيس:

– هل تعتقد أن مصر القديمة كانت مبنية على الحب؟

– عجباً. طبعاً. وربما على أكثر أنواع الحب التي عرفها العالم تعدداً وشمولاً. كل ما نعانيه الآن هو أن طريقتنا في الحب ضيقة ووحيدة، وهو لذلك ليس حباً على الإطلاق. إنه أشبه ما يكون بالموت والاستبداد.

وهز الكونت رأسه ببطء مبتسماً على نحو بطيء وكأنما بحزن، وقال:

– كلا. كلا. ليس هذا حسناً. عليك أن تستخدم كلمة أخرى غير كلمة الحب.

قال بازل:

– لا أوافق على الإطلاق.

قالت دافني من غير تفكير:

- ما هي الكلمة إذن؟؟؟

نظر الكونت إليها وقال ببطء وهو يلتقط الكلمات بتؤدةٍ وكأنه يبحث عمّا كان يريده، دون أن يجده تماماً:

- الطاعة، الخضوع، الإخلاص، الإيمان، المسؤولية، النفوذ.

ونظر إلى عينيها بعينيه القاتمتين الهادئتين. وما يثير الغرابة هو أنها كانت تمقت كلماته أشدَّ المقت، إلاَّ أنها كانت تحبه. من ناحية أخرى، كانت تصدق بصورة مطلقة ما قاله زوجها، إلاَّ أنَّ تعاطفها البدنيَّ كان ضِدَّه.

سأل بازل:

- هل توافقين يا دافني؟

أجابت وقد حَدَجَتْ زوجها بنظرة عميقة:

- على الإطلاق

قال بازل:

- ولا أنا. يُخَيَّلُ لي أنكَ إذا أحببتَ، فليس ثمة طاعة أو خضوع إلاَّ لروح الحب. إنْ كُنْتَ تقصد الطاعة والخضوع ، إلى آخر ما هنالك، لروح الحب نفسه، فأنا موافق تماماً. أما إنْ كُنْتَ تقصد طاعة وخضوع شخصٍ لآخر، وشخصاًيحظى بنفوذ على أشخاص آخرين، فأنا غير موافق، ولن أوافق أبداً. يبدو لي أن ذلك هو تماماً المنحى الذي ضَلَلْنَا فيه السبيل. القيصر ولهلم الثاني كان يريد النفوذ..

قال الكونت:

– كلا. كلا. كان دجّالاً. لم تكن لديه فكرة عن قُدْسِيَّةِ النفوذ.

– لقد أثبت أنه خطير جداً.

– أوه، أجل. إلاَّ أنَّ السلامَ قد يكون مع ذلك أشد خطورة حتى.

– أخبرني إذن: هل تعتقد أنه يتحتم عليك، كأرستقراطي، أن تحظى بنفوذ إقطاعِيّ على بضع مئات من الرجال الآخرين الذين ولدوا بالمصادفة أرِقَّاء أو غير أرستقراطيين؟؟

قال الكونت :

– لا كأرستقراطي بالوراثة، بل كرجل أرستقراطي بالطبيعة يُحَتِّمُ عليَّ واجبي المقدس أن أمسكَ حياة الرجال الآخرين في يديَّ، وأشَكِّلَ النتيجة. بَيْدَ أنّي لا أستطيع أن أَفِي باحتياجات قَدَرِي أبداً حتى يضع الناس حياتهم في يديَّ عن طيبِ خاطر.

ابتسم بازل قائلاً:

– وأنت لا تتوقع هذا منهم. أليس كذلك؟؟

– في هذه اللحظة، كلا.

قال الرائد بسخرية:

– أو في أية لحظة!..

– في لحظة ما سيأتي الرجال الذين يعيشون فعلاً، ملتمسين أن يضعوا حياتهم في أيدي الرجال العظماء الموجودين بينهم، وسوف يتوسلون إلى الرجال العظماء أن يأخذوا على عواتقهم مسؤولية القوة المقدسة.

قال بازل:

- هل تعتقد ذلك؟؟ ربما كنتَ تقصدُ أنَّ الناس في نهاية المطاف سوف يشرعون في اختيار زعمائهم الذين سيحبونهم. أتمنى أن يفعلوا ذلك.

- كلا . أقصد أنهم في النهاية سوف يتنازلون عن أنفسهم لِمَنْ هم أعظم منهم من الرجال: أي سوف يصبحون تابعين باختيارهم.

صرخ بازل مبتسماً:

- تابعين!.. أنت لا تزال في العهود الإقطاعية أيها الكونت.

ابتسم الكونت قائلاً:

- لا أقصد تابعين لأيٍّ أرستقراطي بالوراثة مثل « هو هنزوليرن » أو « بسانيك »، بل تابعين لرجل وُلِدَتْ روحُه متفرِّدةً، وقادرة على البقاء بمفردها وعلى الاختيار وإصدار الأوامر. في نهاية المطاف سوف تأتي الجماهير إلى مثل هؤلاء الرجال قائلة: أنتم أعظم مِنَّا. فلتكونوا أسيادنا. ضعوا حياتنا وموتنا في أيديكم ورَتِّبُونا حسبما تشاؤون لأننا نرى نوراً في وجوهكم واشتعالاً على أفواهكم.

ابتسم الرائد لحظاتٍ كثيرةً وقد أُثِيرَ فضولُه وشعر بالتسلية وهو يراقب الكونت الذي لم يحرك ساكناً. قال:

- أقول، ستكون ساذجاً إلى حدٍّ مُريعٍ لو اعتقدتَ أنَّ الجماهير المعاصرة سوف تتصرف على ذلك النحو قطّ. وأؤكد لك أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً.

قال الكونت:

- وإذا فعلوا ذلك، هل سَتُسمِّي الأمرَ عهداً جديداً من عهود الحب أم شيئاً آخر؟؟

- حسناً . طبعاً سوف يتضمَّن ذلك عنصراً من عناصر الحب. يتحتم أن يكون ثمة عنصر من عناصر الحب في إحساسهم إزاء زعمائهم.

- هل تعتقد ذلك؟؟ كنت أحسب أن الحب يفترض مساواة في السمات المميزة. كنت أحسب أن الحب مَنَحَ كلَّ شخص الحقَّ في الحكم على أعمال الأشخاص الآخرين. «هذا العملِ لَا يَنِمُّ عن حب، لذا فإنّه خطأ»، ألاَ تمنح الديموقراطية والحب كلَّ شخص هذا الحق؟؟؟

قال بازل:

- حتماً.

- ولكنَّ الأرستقراطيَّ المختارَ، في نظري، سيقول لِمَنِ اختاروه: «إنِ اخْترتُموني، تنازَلْتُم إلى الأبد عن حقكم في الحكم عَلَيّ. إذا كنتم فعلاً قد اخترتم أنْ تتبعوني، فقد طرحتم بذلك كل حقكم في أن تنتقدوني. وليس في وسعكم بعد الآن أن تشيدوا بي أو أن تستنكروني. لقد أديتم عملية الاختيار المقدسة. ومن الآن فصاعداً، ليس لكم إلاَّ أنْ تطيعوا فحسب.

قالت دافني من غير تفكير:

- لن يكون في وسعهم التوقف عن الانتقاد في هذا الصدد.

نظر إليها ببطء فشعرت، ولأول مرة في حياتها، بالارتياب فيما كانت تقوله. قال:

– إنَّ يوم يهوذا(*) ينتهي بيوم الحب.

وأفاق بازل من شبه غشية. قال:

– أعتقد، طبعاً أيها الكونت، أنها فكرة مسلية إلى أبعد حد. إنها لطمةُ تراجعٍ إلى العصور المظلمة.

قال الكونت:

– ليس الأمر على ذلك النحو. لم يكن الرجال، جماهير الرجال، أحراراً قَطّ من قبل لتأدية عملية الاختيار المقدس، أما اليوم فقد يُمْسُون أحراراً عمّا قريب.

– أوه، لا أعرف. إنَّ قبائل كثيرةً اختارت ملوكها ورؤساءها.

– لم يكن الرجال من قبل أحراراً تماماً لتأدية عملية الاختيار: لمعرفة ماذا كانوا يفعلون.

– تقصد أنهم جعلوا أنفسهم أحراراً فقط كي يرهقوا أنفسهم طَوْعاً بأسيادٍ وحُكامٍ جُدُدٍ؟؟

– إنني فعلاً أقصد ذلك.

– وباختصار: الحياة مجرد دائرة فاسدة؟؟؟

– كلا، على الإطلاق. بل دائرة كما تقول آخذة في الاتساع، وهي أروع دائماً.

(*) يهوذا: هو يهوذا الإسخريوطي، أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر. باع مُعَلِّمَهُ بثلاثين من الفضة فصار اسمُه رمزاً للخيانة. المترجم.

- حسناً، إنَّ ذلك كله مُسَلٍّ وممتعٌ إلى أبعد حد. ألا تعتقدين ذلك يا دافني؟؟؟ وبالمناسبة أيها الكونت. أين ستكون النساء؟؟ هل سيُسْمَحُ لهنّ بانتقاد أزواجهنّ؟؟

ابتسم الكونت قائلاً:

- فقط قبل الزواج، وليس بعده.

قال بازل:

- رائع!.. نفسي فداءٌ لذلك الشِّقِّ من مشروعك أيها الكونت. آمل أن تكوني مصغية يا دافني.

قالت في صوت غاضب متبلّد:

- أوه، أجل. ولكنني في هذه الحال قد تزوجتكَ أنتَ فحسب، وحصلتُ على حقي في انتقاد جميع الرجال الآخرين.

- بالضبط. هذا ذكاء منكِ، وهكذا لن يُفلتَ الكونت. حسناً الآن، ما هو رأيكِ بمشروع الكونت الأرستقراطي من أجل المستقبل يا دافني؟؟ هل تُقِرّينه؟؟؟

قالت بقسوة:

- كلاّ على الإطلاق. لكنَّ الرجال الصغار كانوا دائماً يبتغون القوة.

قال بازل على نحو استرضائي:

- والرجال الكبار أيضاً فيما يتعلق بذلك.

قال الكونت مبتسماً:

- لقد أخبروني من قبل أن الرجال الصغار يميلون إلى السيطرة دائماً. أخشى أن أكون قد جرحتُ مشاعرَ السيدة دافني.

قالت:

- كلا. لم تجرحها فعلاً. إنني مستمتعة . إلاَّ أنني أمقت أيَّ أثر للتَنَمُّر.

قال:

- وأنا كذلك في الواقع.

قال بازل:

- لم يكن الكونت يقصد التنمّر يا دافني. ثمة اختلاف مُتَاحٌ في الحقيقة بين القوة المسؤولية وبين التَّنَمُّر.

قالت:

- عندما يتفق الرجال على ذلك.

كانت متغطرسة وغاضبة وكأنها كانت تخشى أن تفقد شيئاً. وابتسم الكونت لها بتَشَفٍّ. قال:

- هل جرحتُ مشاعرَكِ أيتها السيدة دافني؟؟ ولكنْ لماذا؟؟ أنت في مأمَنٍ من أية شرارة من سلطتي الخطيرة والواسعة.

انفجر بازل بضحك هادر. قال:

- ذلك مضحك في الواقع!.. أن تتحدث عن القوة وألاَّ ينتقدك أحد. ولكنني يجب أن أسمع المزيد: وأود أن أسمع المزيد.

قال لزوجته وهما يعودان في السيارة إلى البيت:

- هل تعرفين أنني أحب ذلك الرجل الصغير. إنه شخص ضئيل مشاكس وطريف. وهو يحضن فكرة واحدة.

تجمَّدتِ السيدة دافني إلى أربع درجات تحت الصفر، تحت الريح الشمالية لهذا القول، ولم يكن في الإمكان إذابةُ كلمة واحدة أخرى منها.

الغريب بما فيه الكفاية هو أن بازل هو الذي افْتُتِنَ بالكونت الآن ودافني هي التي أُقْصِيَتْ. ولا يعني هذا أنها كانت مغرمة جداً بزوجها. كلا على الإطلاق. كانت تشعر بالغضب ضد الرجال جميعاً.

ولكنْ وكما يحدث مِراراً، في هذه الحياة المبنية على الزاوية الشريرة، لم يكن في وسع بازل إلاّ أن يتبع حماسه للكونت في حضور زوجته. عندما يكون الرجلان لوحدهما معاً، يكونان أخرقين متنافرين لا يستطيع أحدهما أن يستخرج بضعة كلمات للآخر إلاّ بشقِّ النفس. أما عندما تكون دافني هناك على أية حال، لتكمل دارة التيارين المتعاكسين، فإن الأمور تسير وكأن منزلاً يحترق.

ولم يكن في هذا الكثير من العزاء للسيدة دافني على أية حال. أن تجلس فقط كوسيط سلبي بين رجلين يطلق كل منهما هراء فلسفياً نحو الآخر: كلا، لم يكن ذلك حسناً بما فيه الكفاية!.. كانت تكره الكونت تقريباً: إنه شخص ضئيل القوام خفيض الجبهة، ينتمي إلى سلالة عبيد ما قبل التاريخ. إلاّ أنَّ حقدَها على زوجها، ذي الوجه الأبيض والمُكَثَّفِ روحياً، كان لاذعاً كالخَلّ. مخذولة: كانت مخذولة بينهما كليهما.

وماذا بعد؟ حسناً. ما حدث بعد ذلك كان خطأ بازل بشكل كامل.

كان الشتاء يمضي: كان واضحاً أن الحرب انتهت فعلاً، وأن ألمانيا انتهت.

كان «الهوهنزوليرن » قد أخفقوا مثل مفرقعة رديئة للغاية، وكان «الهابزبيرغ» ينفجرون بشكل ضعيف في غموض، وقد تلطّخ الرومان دون بقبقة(*).

وكان ذلك فوق طاقة الملكية الاستبدادية، ومن الآن فصاعداً سيحلُّ السلام الديموقراطي. وكان الكونت سوف يُشْحَنُ الآن طبعاً، كالبضائع المُعَادَةِ التي لم تَعُدْ تلاقي رواجاً. كان ثمة سلام عالمي في الواجهة، وبعد أسبوع أو اثنين ستخلو «فوينيش هول».

ولم يكن في وسع بازل على أية حال أن يترك الأمور تسير في مجراها البسيط. كان الكونت قد فَتَنَهُ إلى أبعد حد. وكان يريد أن يكرم وفادته كضيف قبل أن يرحل. وكان في مقدور الرائد آبسلي أن يحصل على أيِّ شيء معقول في تلك اللحظة. لذا حصل على إذْنٍ للكونت الصغير المسكين بالإقامة لمدة أسبوعين في «ثورزوي» قبل إعادة شحنه إلى النمسا.

(*) الهوهنزوليرن: أسرة ألمانية امبراطورية المنشأ، انضمت إلى الرايخ الألماني عام,1870 وقد حملت هذه الأسرة لقب ملك بروسيا ,1701 وامبراطور ألمانيا عام 1871 .

أما الهابزبيرغ فهي أسرة امبراطورية سابقة في النمسا وهنغاريا، وكان الهابزبيرغ يحملون لقب الإمبراطور الروماني المقدس. المترجم.

وما كان الإيرل بيفيريدج، والذي كانت روحه سوداء كالحبر منذ الحرب، ليسمح أبداً للعدو الأجنبي الصغير أن يدخل منزله لولا الكراهية التي أثارها في دخيلته خلال العامين الأخيرين مشهدُ الوطنيين المزعومين المنحطّ، والذين كانوا ينبحون بيذاءتهم الهجينة في الوجه الحكومي. كان هؤلاء المُهَجَّنُون قد عطلوا الصحافة والجمهور الانكليزي لمدة عامين تقريباً. كان هدفهم الأوحد تخفيض وإذلال كل ما بقي فخوراً أو مُبَجَّلاً في انكلترا. وكان ارتقاءُ الكثير من البذاءات الشعبية، والتي عقدت عزمها على خنق جميع الرجال المُبَجَّلين، إلى القمة هو أسوأ الكوابيس على الإطلاق تقريباً.

ولهذا السبب ضرب الإيرل، الذي لم يكن يعتزم قط أن تغمره حثالة الشعب القذرة مهما انتابه من الأمور الأخرى، الأرضَ بأخمصيْهِ وانتصب قائماً على قدميه. وعندما سأله بازل فيما إذا كان يسمح للكونت بقضاء أسبوعين في هدوء لائق في «ثورزوي» قبل أن تنتهي الأمور، أعطى اللورد بيفيريدج موافقة بطيئة، سواء أكان ذلك عاراً أم لا. وفي الواقع كان قد اتخذ تلك الخطوة ليتحدّى العار، إذْ أَنَّ فكرة ولديه الميّتينْ كانت مريرةً بالنسبة إليه، وكانت فكرة سقوط انكلترا تحت مخالب المهجنين ذوي الرائحة الكريهة أشدَّ مرارة مع ذلك.

ووقف اللورد بيفيريدج في «ثورزوي» ليستقبل الكونت الذي وصل بمرافقة بازل. كان الإيرل الإنكليزيُّ رجلاً كبيرَ البنية ووسيماً، وضخماً إلى حدٍّ ما، بوجه داكن كئيب كان من الممكن أن يكون متغطرساً لو لَمْ تكن الغطرسة قد أَمْسَتْ غايةً في السخافة.

كان رجلاً عاطفياً، بحساسيةِ وسماحةِ واستبدادِ الرجل العاطفي.

ولكن طبيعته العاطفية القاتمة وحساسيته العنيفة كانتا قد أُخْضِعَتَا الآن لخمسة وخمسين عاماً من الكبت المصقول، والإدانة والإنكار إلى أنْ كاد على وجه التقريب أن يصل إلى الإيمان بخطئه الخاص. وكانت زوجته الصغيرة الضئيلة، وكلها حب للإنسانية، هي الصنف الحقيقي. أما هو فقد صُنِّفَ على أنه أناني، شهواني وفاسق إلخ، إلخ..

لذا كان يبدو الآن أنه دائماً يقف جانباً، في الظّلِّ، تاركاً حشد الاستعجال الديمقراطي الشاحب يطمسه. كان ذلك هو الانطباع الذي يخلّفه عن رجل يرجع القهقرى نصف خَجِلٍ ونصف متغطرسٍ ونصف خفي في الخلفية المعتمة.

كان في وضعية دفاعية بعض الشيء عندما دخل بازل مع الكونت. قال وهو يخطو خطوات كبيرة إلى الأمام مادّاً يده:

- آه، كيف الحال أيها الكونت بسانيك؟؟

ولأنه كان والد دافني شعر الكونت بحنان ما نحو الانكليزي الصموت. قال الكونت الصغير باعتزاز:

- لقد أسديتَ إليَّ شرفاً كبيراً، سيدي اللورد، باستقبالك إيَّايَ في منزلك.

نظر الإيرل إليه ببطء دون أن يتكلم: كان يبدو وكأنه يزدريه بكل معنى الكلمة. قال:

- لا نزال رجالاً أيها الكونت. لسنا جميعاً وحوشاً.

ابتسم الكونت مُغَضِّناً أنفه الدقيق وقال:

- هل تود أن تقول أن أبناء وطني هم أقرب ما يكونون إلى الوحوش أيها اللورد بيفيريدج؟؟؟

ومرة أخرى أبطأ الإيرل في الإجابة. قال:

- لديك فكرة سيئة عن سلوكي أيها الكونت بسانيك.

ابتسم الكونت وقد ارتسمت على أنفه سيماء الازدراء الطائشة نفسها وقال:

- ربما كان لديَّ مجرد إدراك بما رميت إليه أيها اللورد بيفيريدج.

فشاع الدم الأسود في وجه اللورد بيفيريدج وقد جُرِحَتْ مشاعرُ غضبِهِ الفطريِّ كلها. قال:

- يسرني أن يوضح الكونت بسانيك لي ما كنت أرمي إليه.

أجاب الكونت:

- أستميحكَ عُذْراً آلاف المرات سيدي اللورد إنْ كنتُ قد سَبَّبْتُ الإساءة بعملي ذلك.

اكفهر وجه الإيرل وشعر بأنه أحمق. أدار ظهره للكونت، ثم استدار مرة أخرى وهو يقدم علبة سيجاره. قال:

- هَلاَّ دخَّنْتَ؟؟

كان ثمة لطف في نبرته. قال الكونت وهو يأخذ سيجاراً:

- أشكرك.

قال اللورد بيفيريدج:

– إنني أجرؤ على القول بأن جميع الرجال وحوش بطريقة ما.أخشى أن أكون قد سقطتُ في عادة التحدث استظهاراً وليس ما أعنيه فعلاً. هَلاَّ اتخذتَ لكَ مقعداً؟؟

قال الكونت وهو يجلس على المقعد:
– لم أعلم إلاَّ وأنا أسيرٌ فحسب أنني بصدق لم أكن وحشاً. كلا. أنا نفسي. لست وحشاً.

وحدجه الإيرل بنظرة على نحو فضولي، ثم قال وهو يبتسم:

– حسناً، أعتقد أنه من الأفضل الوصول إلى قرار في ذلك الصدد.

– ذلك ضروريّ إذا كان على المرء أن يكون في منأى عن السوقية.

وشعر الإيرل بوخزة اتهام. وراح يراقب، بعينيه العسليتين بلون العقيق والقاسيتي النظرات، الكونت الصغير ذا الجبين الأسود. قال:

– من المحتمل أن تكون مصيباً.

إلاَّ أنه أشاح بوجهه جانباً.

كانوا خمسة أشخاص عند العشاء وكانت السيدة بيفيريدج هناك باعتبارها المضيفة. قالت متنهدة:

– آه، أيها الكونت دايونيس. هل تشعر حقاً بأن الحرب قد انتهت؟؟؟

أجاب بسرعة:

– أوه، أجل. لقد انتهت هذه الحرب. ستعود الجيوش إلى

أوطانها ، ولن يُدَوِّيَ مدفُعها بعد اليوم. لن يحدث أمر كهذا مرة أخرى.

تنهدت قائلة:

- آه، آمل ذلك.

قال:

- أنا متأكد.

قالت دافني:

- هل تعتقد أنه لن يكون ثمة حرب بعد الآن؟؟؟

كانت لسبب ما قد جعلت نفسها تبدو جميلة للغاية في أحدث فساتينها والمنسوج من الشنيل(*) الفضي والأسود والقرمزيّ بكتفين عاريتين وقد صُفِّفَ شعرُها على الطراز الحديث. استدار الكونت ببذلته الرثة إليها. كانت عصبية المزاج وعلى عجلة من أمرها. كانت ذراعها النحيلة البيضاء على مقربة منه، بمقدار ضئيل من الفضة عند الكتف. كان جلدها أبيض اللون كزهرة نبتت في دفيئة. وكانت شفتاها تتحركان بسرعة. قال:

- لن يكون ثمة حرب أخرى كهذه أبداً.

أجابت وهي تلقي نظرات عجلى على عينيه:

- ما الذي يجعلك متأكداً إلى هذا الحد؟؟؟

- لقد خرجتْ آلةُ الحرب عن نطاق سيطرتنا. لن نبدأها مرة أخرى أبداً إلى أن تتمزق إرْباً. سنخاف.

(*) الشنيل: غزل صوفي أو قطني أو حريريّ ذو زئبر ناتئ. المترجم.

قالت وهي تخفض بصرها إلى الأسفل وتضغط ذقنها:
- هل سيخاف كل شخص؟؟
- أعتقد ذلك.

قالت السيدة بيفيريدج:
- سنأمل ذلك.

قال بازل:
- هل يزعجكَ أن أسألكَ أيها الكونت ماذا تشعر إزاء الطريقة التي انتهت بها الحرب؟؟ أقصد الطريقة التي انتهت بها بالنسبة إليك.
- هل تقصد أن ألمانيا والنمسا قد خسرتا الحرب؟؟ كان ذلك محتوماً. لقد خسرنا الحرب جميعاً. أوروبا بأكملها.

قال اللورد بيفيريدج:
- إنني أوافق على هذا.

قالت دافني وهي تستدير لتنظر إليه:
- خسرنا الحرب جميعاً؟؟؟
كان ثمة ألمٌ يرتسم على وجهه الداكن ذي الجبين المنخفض. كان يعاني من وجود المرأة الحساسة إلى جانبه. كان لجلدها رِقّةٌ دفيئةٍ مما جعل رأسه يدور. كانت كتفاها واسعتين ونحيلتين نوعاً ما، ولكنَّ الجلدَ كان أبيض وعلى درجة كبيرة من الحساسية، ورقيقاً رقة الدفيئة إلى حد كبير. وقد أثَّر ذلك عليه كما يؤثر عطرُ زهرةٍ بيضاءَ غريبة. وبدت وكأنها تطلق قلبها باتجاهه. وبدا الأمر وكأنها كانت تود أن تضغط صدرها على صدره.

من صدرها كانت تحبه، وتطلق الحب له. وقد جعله ذلك حزيناً.

كان يريد أن يكون هادئاً، وأن يحتفظ بمقامه الرفيع أمام هؤلاء المضيفين.

نظر في عينيها وكانت عيناه داكنتين بالمعرفة والألم. وكان يبدو أنها، بِصَمْتِها وكلماتها الموجزة، كانت تبقيهم جميعاً تحت وطأة سحرها. كان يبدو أنها قد ألقت سكوناً ما على المائدة، وبقيت سيدةً وسط هذا السكون، وهي تنحني نحوالأمام باتجاه صحنها وتسيطر بصمتٍ عليهم جميعاً.

أجاب ردّاً على سؤالها:

- ألاَ أعتقد أننا قد خسرنا الحرب جميعاً؟؟؟ كانت حربَ انتحار. ولم يكن في وسع أحد أن يربحها. كانت انتحاراً لنا جميعاً.

أجابت:

- أوه، لا أعرف. ماذا عن أمريكا واليابان؟؟؟

- لا يهم أمرهما. لقد ساعَدَتَانا فحسب على ارتكاب الانتحار. لم تدخلا الحرب بشكل أساسي.

كان ثمة نظرة ألم كبيرة على وجهه، ونبرة ألم كبير في صوته، إلى درجةٍ أنَّ الثلاثة الآخرين صَمُّوا آذانهم وكَفُّوا عن الإصغاء. وحدَها دافني كانت تدفعه إلى التحدُّث. كانت هي التي راحت تسحب الروح منه، في محاولة منها لقراءة المستقبل فيه كما يقرأ العرّافونَ المستقبلَ في أمعاءِ الحيوانِ المُضَحّى به المرتجفة. راحت تنظر مباشرة إلى وجهه. مُنَقِّبَةً في روحه. قالت:

- هل تعتقد أن أوروبا قد انتحرت؟؟؟

- أخلاقياً.

وتناهت كلماتها البطيئة الشبيهة بالبرونز على نحو حاسم جداً:
- أخلاقياً فقط؟؟

ابتسم قائلاً:
- ذلك يكفي.

قالت وهي تسدل جفنيها ببطء:
- تماماً.

ثم أشاحت بوجهها. لكنه شعر بأن قلبه يختنق داخل صدره. ماذا كانت تفعل الآن؟؟ بماذا كانت تفكر؟؟ مَلأَتْهُ بالغموض وبخوف غريب.

قال بازل:
- لقد هدأتْ تلك المدافع الجهنمية على الأقل.

قال دايونيس:
- إلى الأبد.

قال الرائد:
- أتمنى لو أستطيع أن أصدقكَ أيها الكونت.

وتطرّق الحديث إلى المزيد من الأمور العامّة أو الأمور الشخصية. سألت السيدة بيفيريدج دايونيس عن زوجته وعائلته. لم يكن يعرف شيئاً باستثناء أنهم كانوا قد ذهبوا إلى هنغاريا عام 1916 عندما أُحْرِقَ منزلهُ. بل ربما كانت زوجته قد ذهبت إلى بلغاريا مع الأمير «بوغوريك». لم يكن يعرف. صاحت السيدة بيفيريدج قائلة:

- ولكنْ، أطفالك أيها الكونت؟؟؟

- لا أعرف. من المحتمل أن يكونوا في هنغاريا مع جدتهم. سوف أذهب إلى هناك عندما أعود.

- ولكنْ، أَلَمْ تكتب قَط؟؟ أَلَمْ تستَعْلِم؟؟

- لم أستطع أن أكتب. سأعرف في وقت قريب بما فيه الكفاية. كل شيء.

- أليس لديك ابن؟؟

- كلاّ، فتاتان.

- يا للمسكينتين!..

- أجل.

سأله بازل ليشيع جوّاً من البهجة في المحادثة:

- أقول، أليس غريباً أن تتّخذوا خنفساءمُنَقَّطَة على شعاركم؟؟

قال الكونت مبتسماً:

- وفيم الغرابة ؟؟ كان شارلمان يتخذ النحل. وهذه الخنفساء هي خنفساء مريم. خنفساء سيدتنا. أعتقد أنها حشرة بشيرة تماماً أيها الرائد.

قالت دافني وهي تستدير فجأة لتنظر إليه مرة أخرى بنظرتها البطيئة الحافلة بالمعاني:

— هل أنت فخور بها؟؟

- إنني فخور بها، كما ، تعلمين. إنَّ لها سلسلةَ نَسَبٍ طويلةً جداً، خنفساؤنا المنقطة تلك. وهي أطول من سلسلةِ نسبِ آل

بسانيك. أعتقد، كما تعلمين، أنها تنحدر من الجُعَل(*) المصريِّ والذي هو شعار غامض جداً. لذا فإنني أربط نفسي بالفراعنة: عبر خنفسائي المنقطة فحسب.

قالت:

– أنت تشعر بأن خنفساءك المنقطة قد زحفت عبر عصور كثيرة جداً.

ضحك قائلاً:

– تصوَّري ذلك.

قال بازل:

– الجُعَل حشرة مثيرة.

وتدخل اللورد بيفيريدج قائلاً:

– هل تعرفون فابر؟؟ إنه يقترح أن الخنفساء التي تُدَحْرِجُ كرةً صغيرةً من الرَّوْثِ أمامها في حقل قديم جاف هي التي أوحت، ولابد، للمصريين بالمبدأ الأول الذي سَنَّ دوران الكرة الأرضية. وهكذا أصبح الجُعَلُ رمزَ المبدأ أو شيئاً من هذا القبيل.

قال بازل:

– إنه لشيء جيد أن تكون الكرة الأرضية كرة صغيرة من الروث الجاف.

أضافت دافني قائلة:

– بين مخالب خنفساء منقطة.

(*) الجُعَل المصريّ: خُنفساء سوداء. المترجم.

قالت السيدة بيفيريدج:

- ذلك هو كل ما في الأمر. أن يعود المرء إلى أصله.

قال الكونت:

- ربما كانوا يقصدون أن مبدأ التعفُّن هو الذي جعل الكرة تتدحرج أوَّلاً.

قال بازل:

- كان يجب أن تكون الكرة موجودة أَوَّلاً.

ابتسم الكونت وكأن الأمر نكتة، وقال:

- بالتأكيد. إلاَّ أنها لم تكن قد بدأت تتدحرج. ثم أدارها مبدأ التعفن.

قالت السيدة بيفيريدج:

- لستُ عالمةً بالآثار المصرية، لذا ليس في مقدوري أن أطلق حُكْماً.

في اليوم التالي غادر الإيرل والكونتيسة بيفيريدج المكانَ، وتُرِكَ الكونت دايونيس مع الزوجين الشابين في المنزل. كان قصراً جميلاً على الطراز الأليزابيثي، ولم يكن كبيراً جداً، إلا أنه كان يحتوي على تلك الغرف السحرية التي كانت بِرِمَّتِها عبارةً عن تلألُؤِ نوافذَ ذات ألواح زجاجية صغيرة عندما يطل المرء عليها من الرواق المعتم والمُزَوَّد بالألواح. كان داخل المنزل دافئاً ومريحاً ومزوَّداً بالألواح حتى السقف، وكان السقف مُزَيَّناً وبه لَمَساتٌ من الذهب. ثم قوس النافذة المربع الكبير بألواحه الزجاجية الصغيرة التي تَتَدَخَّلُ كالسّحر بين نفس المرء

وبين العالَم في الخارج، والشعار يتوّج لونَه بالزجاج المصبوغ، ومقعد النافذة العريض المزوَّد بوسائد ذات لون أخضر باهت.

كان دايونيس يتجول في أرجاء المنزل كشبح صغير عبر تعاقب غرف الجلوس المتلألئة الصغيرة والكبيرة وغرف الاستراحة في المقدمة، نازلاً الرواق الطويل العريض بدرجاته العريضة عند كل طرف منه، وصاعداً درجات السّلَّم الضيقة إلى غرف النوم الموجودة في الأعلى، متابعاً طريقه إلى السطَح.

كان الوقت ربيعاً تقريباً، وكان يعشق أن يجلس على السطح الرماديّ الباهت المكسوِّ بالرصاص، والذي كان له مقاعده ومنحدراته الغريبة، وعالَمٌ صغيرٌ شاحب بحدِّ ذاته. ثم أنْ ينظر إلى الأسفل فوق الحديقة والمرجة المنحدرة إلى البُرَكِ، التي كانت الأشجار تتكتل حولها، وبعيداً إلى أشجار الدردار وأخاديد وأسيجة الناحية. إلى اليسار من المنزل كانت المزرعة ومبانيها، بأكداس، وحظائر ذات أسطحة كبيرة، ومواشٍ حُمْر داكنة. وبعيداً إلى اليمين، وراء المُتَنَزَّه، كان ثمة قرية بين الأشجار، ووميض برج كنيسة رمادية.

كان يحب أن يكون بمفرده، شاعراً بروحه مُثْقَلَةً بقَدَرِها الخاص.

كان يجلس لساعات وهو يراقب أشجار الدردار التي كانت تنتصب في صفوف كالعمالقة، كالمحاربين عبر الريف. كان الإيرل قد أخبره أن الرومان أحضروا أشجار الدردار هذه إلى بريطانيا. وكان يبدو أنه يرى روح الرومان لا تزال كامنةً فيها. كان يرى، وهو يجلس هناك بمفرده في أشعة الشمس الربيعية وفي عزلة السطح، سحرَ انكلترا الأسيجةِ وأشجارِ الدردار هذه، والعُمَّالَ بجيادهم البطيئة وهم يشقون

يبطء الطبقة العليا من التربة، ويعبرون الأخدود البني، وأسطحةَ القرية، وبرجَ الكنيسة وهو ينتصب بجانب شجرة «طقسوس»(*) سوداء كبيرة، ورقعةالحقول المبتعدة في المسافة. وفتنةَ القصرِ العتيقِ حوله، والحديقةَ بأسوارها الحجرية الرمادية وأسيجتها المكونة من أشجار الطقسوس، وهي أسيجة عريضة، عريضة، وطاووساً يتوقف ليتألق ويصيح في سكون ربيع انكليزيٍّ صاخب، عندما تنشر بقلات الخطاطيف(**) لونها الأصفرَ تحت الأسيجة، وأزهارَ البنفسج محتَجِبَةً عن الأنظار، وقرب ممرات الحديقة العريضة تُغَيِّرُ نباتات نرجس اسطنبول والزعفران النعومةَ واللهيبَ، وتهتزُّ أزهار قليلة من أزهار المنثور الأصفر على نحو مُهْمَلٍ، بانتصارٍ رائعٍ خارجةً من شقوق السور. كان ثمة قطيعُ خِرافٍ في مكان قريب، وكان في وسعه أن يسمع ثُغَاءَ الحِمْلان النامية ذا الطبقة الصوتية العالية، وثُغَاءَ النِّعاجِ الراضية ذا الوقع الأعمق.

كان هذا بيتَ دافني حيث كانت قد وُلِدَتْ. وكانت تحبه باشتياق عاطفي موجع. ولكنْ، كان من الصعب عليها الآن أن تنسى أخويها الميِّتَيْن. كانت تجوس المكان في أشعة الشمس، وخلفها كان يمشي كلبان عجوزان بخطى خافتة. كانت تتحدث مع كل شخص، البستاني ، سائس الخيل، المشرف على الإسطبل، ومع عمال المزرعة. كان ذلك يملأ جزءاً كبيراً من حياتها وهي تتسكع في الجوار وتتحدث مع العمال. كانوا طبعاً يُكِنُّونَ الاحترام لها إلاَّ أنهم لم يكونوا يَخْشَوْنَها على الإطلاق. كانوا يعرفون أنها فقيرة وأنها غير قادرة على ابتياع سيارة، ولا أيِّ شيء. لذا كانوا يتحدَّثُون إليها

(*) شجر الطقسوس: شجر دائم الخضرة من الفصيلة الصنوبرية. المترجم.

(**) بقلة الخطاطيف: نوع من النبات. المترجم.

بحُرِّيَّةٍ تامّةٍ: وربما بِحُرِّيةٍ تامّةٍ تزيد عن الحَدِّ قليلاً. مع ذلك، كانت تترك الأمور تجري على ما هي عليه. كانت هوايتَها الوحيدةَ في ثورزوي هي أن تسمع التابعين يتحدثون ويتحدثون عن كل شيء. كان الشعور الغريب بالألفة، عبرٍ هذا الخَرْقِ للأعراف، يفتنها. وكانت حياتهم تفتنُها: ما كانوا يفكّرون فيه، وما كانوا يشعرون به. هؤلاء وما كانوا يشعرون به. ذلك ما كان يفتنُها. وكان ثمة حارسُ طرائدَ(*) كان يمكن أنْ تُحِبَّه: شخص وقح، أحمر الوجه، ضاحك ومتملق. كان من الممكن أن تحبه لو لم يكن معزولاً وراء الثغرة القائمة بين ميلاده وبين ثقافتها ووعيها. كان يبدو أن وعيها يقيم ثغرة واسعة بينها وبين الطبقات الأدنى، الطبقات اللاواعية. وكانت تَقْبَلُ هذا الأمر على أنه قَدَرُها. لم يكن في وسعها قَطّ أن تقابل أيَّ شخصٍ في احتكاكٍ حقيقي إلاّ إذا كان فائقَ الوعي، وكائناً كاملاً مثلها: أو مثل زوجها.

كان لوالدها بعضٌ من الدفء الدمويِّ اللاواعي الذي تمتاز به الطبقات الأدنى. بَيْدَ أنَّه كان كرجل كُتِبَتْ عليه اللَّعْنَة. والكونت، طبعاً. كان للكونت شيءٌ حار وخفي، لهيبُ حياةٍ داكنٌ يمكن أن يدفِئَ نارَ دمِها الباردة البيضاء. ولكنْ...

كانَ كل منهما يتجنَّب الآخر. كان كل واحدٍ من الثلاثة برمَّتِهِمْ يتجنَّب الآخر.

كان بازل أيضاً ينام بمفرده. أو كان ينهمك في الشِّعْر. وكان هو والكونت أحياناً يلعبان البليارد.

(*) حارس الطرائد: شخص يُكَلَّفُ بمنع المُتَطَفِّلِين من صيد الطيور في عزبةٍ أو أملاكٍ ريفية. المترجم.

وكان الثلاثة أحياناً يتنزهون معاً في الأرض المُسَيَّجة. وكان بازل ودافني غالباً ما يمشيان إلى القرية لإيداع الرسائل. ولكنْ، وبصدقٍ، كان كلٌ واحدٍ من الثلاثة بِرِمَّتِهِمْ يتجنَّبُ الآخر.

وكَرَّتْ سُبْحَةُ الأيّام.

كانوا يجلسون في المساء معاً في الغرفة الغربية الصغيرة التي كانت تحتوي على كُتُبٍ وبيانو وأثاثٍ مُريح رثٍّ بنسيج مزدانٍ بالرسوم والصور ذي لونٍ ورديٍ باهت: كانت غرفةً رَثَّة. كان بازل أحياناً يقرأ بصوت مرتفع، وكان الكونت أحياناً يعزف على البيانو. وكانوا يتحدثون. وكانت دافني تنهمك، غرزةً فَغَرْزَةً، في صنع غطاءِ سريرٍ مُطَرَّزٍ كبيرٍ يمكن أن تنهيه إذا أَمَدَّ اللهُ في عمرها ما فيه الكفاية. إلاّ أنهم كانوا دائماً يذهبون إلى الفراش في وقت مُبَكِّر. وكان كلٌّ واحدٍ منهم دائماً تقريباً يتجنَّب الآخر.

كان دايونيس يأوي إلى غرفةِ نوم تقع في الجزء الرئيسي الشرقي من المبنى، وكانت بعيدة عن غرف الآخرين. وكان من عادته، حين يكون بمفرده تماماً، أن يغني، أو بالأحرى أن يدندن لنفسه أغاني طفولته القديمة. كان لا يقوم بذلك إلاّ حين يُحِسُّ أنه بمفرده تماماً: عندما يبدو أن الآخرين قد تلاشوا من حوله، والعالمَ بأكملهِ وقد غرق في الظلام، وليس ثمة شيء سواه، سوى روحه، حيّةً في وسط ليله الصغير الخاص، منعزلةً إلى الأبد.

وعندئذ، وفي شبه غيبوبة، يدندنُ أغاني لهجة طفولته بصوت معصور صغير ذي طبقةٍ عاليةٍ، ويشبه صوتاً مرتفعاً في الحلم. كانت ضوضاءً غريبةً: صوتُ رجلٍ وحيدٍ داخلَ دمه، وعلى وجه التقريب صوتُ رجل يُنَفَّذُ فيه حُكْمُ الإعدام.

وسمعت دافني الصوتَ ذات ليلةٍ وهي تنزل إلى الطابق السفلي مرة أخرى حاملة مصباح الرواق لكي تحضرَ كتاباً. كانت رديئةَ النَّوْم، وكانت لياليها عذاباً بالنسبة إليها. كانت هي أيضاً كإنسانٍ عُصَابِيٍّ(*) مُسَمَّرَةً داخلَ وعيها الذاتي المضطرب. إلاّ أنها كانت ذات أُذُنٍ حادّةِ السَّمع إلى حَدٍ كبير. لذا، أُجْفِلَتْ حين سمعت صوتَ الكونتِ الصغيرِ الشبيهَ بصوت الخفَّاش وهو يغني لنفسه. وقفتْ في منتصف الرواق الذي كان عريضاً كغرفةٍ ومفروشاً بسجّادةٍ ذات لون أرجواني باهتٍ بقطعةِ أثاثٍ داكنةٍ ضخمةٍ بين كل فسحة وأخرى من الجدار، وكنبةٍ من خشب السنديان وأحياناً ببساطٍ شرقيٍ باهتٍ مائل إلى الاحمرار.

كانت تحمل بيدها المصباحَ الكبيرَ الشبيهَ بالقرْنِ والذي كان يوضع في الليالي عند نهاية الرواق. وجعلها صوت الكونت «المزقزق» العاطفيُّ، كنوع من السِّحْرِ، تنسى كل شيء. لم يكن في وسعها أن تفهم كلمة واحدة طبعاً، ولم يكن في وسعها أن تفهم الضوضاء حتى. وبعد الإصغاء لفترة طويلة تابعت نزولها إلى الطابق السفلي. وعندما عادت ثانية كان هادئاً، وكان النور المنبعث من أسفل باب غرفته قد انطفأ.

بعد هذه الحادثة أصبح الإصغاء إليه هاجساً بالنسبة إليها. كانت تنتظر، بنَزَقٍ غريبٍ، الساعةَ العاشرةَ حين يغدو في مقدورها أن تنسحب. بل كانت تنتظر بمزيدٍ من الاضطراب أن تتركها الخادمة وأن يأتي زوجهاليقول: تصبحين على خير.

(*) العُصَابِيّ: المصاب بالعُصَاب، وهو اضطراب عصبي وظيفي. المترجم.

كان بازل يأوي إلى غرفةٍ تقع عبر الرواق. وكانت بعدئذ تنتظر بنزق مُمْتَعِضٍ أن تَسْكُنَ أصواتُ المنزل. وكانت بعد ذلك تفتح باب غرفتها لِتُصِيخَ السَّمع.

ومن البعيد، وكأنما من المجهول البعيدِ، البعيدِ، وكصوتِ شخص يتكلم من بطنه، أوكصَأْصَأَةِ خفَّاشٍ غريبةٍ، كان يتناهى صوتُ الكونتِ الخافتُ والذي يتعذَّرُ سماعُه تقريباً، وهو يغني لنفسه قبل أن يأوي إلى الفراش. كان سماعُ هذا الصوت متَعَذِّراً على أيِّ شخص سواها. ولكنَّها، وعن طريق التركيز، بَدَتْ وكأنها تسمع على نحو خارق. كان ثمة كنبةٌ خفيضةٌ قرب الباب، وهناك كانت تجلس وتصيخُ السَّمعَ وقد تَدَثَّرَتْ بشال حريري أسودَ قديم وكبير. لم يكنْ في وسعها أن تسمع في البدء. أي استطاعت أن تسمع الصوت، إلاَّ أنه كان صوتاً فحسب. وبعد ذلك، شيئاً فشيئاً وبالتدريج بدأت تَتْبَعُ خَيْطَ الصوت. كان كخيطٍ تبعتهُ إلى خارج العالَم: خارج العالَم. وعندما أوغلتْ في الابتعاد، على نحو بطيء وبدرجات، وانحدرتْ على خيط غنائه الرفيع، عرفتِ الطمأنينةَ، وعرفتِ النسيان. كان في مقدورها أن تعبر إلى ما وراء العالم، بعيداً وراء المكان، إلى حيث كانت روحها تتوازن على جناحين مثل طائر، وتكتمل.

هذا ما كان عليه الأمر في روحها العليا. ولكنْ، تحت ذلك كان ثمة حنينٌ متوحِّشٌ، متوحِّشٌ، لأن تذهب فعلاً، وأن يُضَحَّى بها فعلاً، أن تذهب فعلاً، أنْ تموتَ الموتَ فعلاً، أن تعبر الحدود فعلاً وأنْ ترحلَ، أنْ ترحلِ. أنْ ترحلَ عن ذاتِها هذه، عن دافني هذه، أن ترحل عن أمها وأبيها وأَخَوَيْها وزوجها والبيت والأرض والعالَم: أن ترحل، أن ترحل إلى النداء القادم من العالم الآخر: النداء. كان الكونت ينادي. كان

يناديها. كانت متأكدة من أنه كان يناديها. خارج ذاته، وخارج عالَمِها، كان يناديها.

جلست ليلتين داخلَ غرفتها تماماً، قرب الباب المفتوح، وراحت تُصيخ السمع. وحين كان يفرغ من غنائه، كانت تذهب إلى الفراش لتنام نوماً غريباً، خفيفاً، مسحوراً. وكانت مسحورة في النهار. كانت تحس بأنها غريبة وخفيفة وكأن الضغط قد أُزِيلَ من حولها. كان ضغطٌ ما قد شُدَّ حولَها طيلةَ حياتها. ولم تكن قد أحست به حتى الآن. وقد أُزِيلَ الآن. وأحست بأنَّ قدميها خفيفتان جداً، وبأنَّ تنفسها مُرْهَفٌ وبالِغ الحساسية. كان ثمة ضغط عل تنفسها دائماً. أما الآن، فقد طفقتْ تتنفسُ بشكل حسّاسٍ مُرهَفٍ بحيث أمسى التَنَفُّسُ مُتعة، وأَتَتِ الحياةُ في أنفاسٍ مُرْهَفَةٍ وبسرعة، وكأنها تبتهج بالقدوم إليها.

في الليلة الثالثة أخلد إلى الصمت على الرغم من أنها انتظرت وانتظرت حتى ساعات الفجر الأولى. كان راكناً إلى الصمت، لم يُغَنِّ. وعندئذ عرفتْ رعب وظلمةَ الإحساس بأنه قد لا يغني بعد الآن أبداً. انتظرت طيلةَ النهار مثلما ينتظر شخص محكومٌ عليه بالإعدام. وعندما حلَّ الليلُ ارتعدتْ أوصالُها. كان ذلك أقصى رعبٍ عصبي بالنسبة إليها، إذْ كانت تخشى أن ينفكَّ سِحْرُها، وأن تُرْمَى ثانيةً إلى ما كانت عليه من قبل.

وهبط الليل وذاك الصنف من النشوة عليها. أجل، والنداء القادم من الليل. النداء!.. نهضتْ على نحو يائس وأسرعت بالنزول إلى الرواق. كان النور ينبعث من أسفل بابه. جلست على الكَنَبَةِ الكبيرة المصنوعة من خشب السنديان والموجودة قرب بابه وجَمَّعَتْ نفسها

بسرعة وإِحْكَام في شالها الأسود. كان الرواق مُعْتِماً ، بنورِ المصباح الأصفر المُرَصَّعِ بالنجوم. وإلى الأسفل منها، وعلى مبعدة، كان في ميسورها أن تَرى نور المصباح في مدخل غرفتها. كانت قد تركت بابها مُوَارَباً.

بَيْدَ أنَّها لم تَرَشيئاً. كان كل ما فعلته هو أنها لَفَّتْ نفسها بإِحْكَامٍ في الشال الأسود، وأصاخَتِ السَّمْعَ إلى الصوت المنبعث من الغرفة. وصدح الصوت. أوه، ناداها!.. لماذا لا يمكنها أن تذهب؟؟ لماذا لا تستطيع المرور عبر الباب المُغْلَق؟

ثم توقفتِ الضوضاء. وبعد ذلك انطفأ الضوء المنبعث من أسفل باب غرفته. هل يتحتم عليها أن تعود أدراجها؟ هل يتحتم عليها أن تعود أدراجها؟؟؟؟ أوه، مستحيل. كاستحالةأن يرجع القمر على دروبه حالما تستيقظ. وتابعتْ دافني جلوسها وقد التَفَّتْ بشالها الأسود. لو كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا لتابعت جلوسها عبر الأبدية.

ولم يكن في وسعها أبداً أن تعود.

وعندئذ بدأت أفظعُ أغنية. بدأتْ بصوتٍ مريعٍ، بطيءٍ، وموحشٍ إلى حدٍّ ما، كالموت. وإبَّان ذلك تناهى نداءٌ حقيقي، شبيه بصوت الناي، ونوعٌ من الصَّفِير، وأزيزٌ غريب عند النقلات لا سبيل إلى اجتنابه أبداً، ووحشي بكل ما في الكلمة من معنى. ونهضت دافني على قدميها، وفي اللحظة نفسها تصاعد خفقانُ صفيرِ دعوةٍ إلى خارج عويل الموت.

ونقرتْ دافني على الباب نقراً خفيفاً وبسرعة، وهمست قائلة:
- أيها الكونت!.. أيها الكونت!..

توقف الصوت في الداخل، فُتِحَ البابُ، وظهر شبح دايونيس الغامض الشاحب. قال في ذهول وهو يقف جانباً بشكل تلقائي:

- السيدة دافني!..

غمغمتْ قائلةًبسرعة وقد دلفت بتصميم إلى داخل غرفته:

- لقد ناديْتني.

قال بلطف فيما كانت يده لا تزال على الباب:

- كلا. لم أنادِكِ.

قالت فجأة:

- أغلقِ الباب.

فعل ما أَمَرَتْهُ به. وكانت الغرفة غارقةً في ظلام دامس. لم يكن ثمة قمر في الخارج. ولم تستطعْ أن تراه. قالت فجأة:

- أين يمكنني أن أجلس؟؟

قال وهو يمدُّ يده ويلمسها في الظلام:

- سآخذكِ إلى الأريكة.

وارتعشتْ. وجدتِ الأريكةَ، وجلست عليها. كان الظلام حالكاً. قالت بسرعة:

- ماذا تُغَنِّي؟؟

- أنا في غاية الأسف. لم أعتقد أن في إمكانِ أحدٍ أن يسمع.

- ماذا كانت تلك الأغنية التي كنت تُغَنِّيها؟؟

- أغنية من بلدي.

- أليس لها كلمات؟؟

– أجل إنها امرأة كانت بجعةً وأحبَّتْ صياداً قرب المستنقع. لذا أَصْبَحَتِ امرأةً ، وتزوجته، وأنجبت ثلاثة أطفال. ثم ذات ليلة، وفي الليل، ناداها ملكُ البجع طالباً منها العودة وإلاَّ مات. وهكذا انقلبت، وببطء، إلى بجعةٍ مرة أخرى، وببطء فتحتْ جناحيها العريضين، العريضين، وتركت زوجها وأطفالها.

كان الصمتُ مطبقاً في الغرفة المظلمة. كان الكونت قد رُوِّعَ فعلاً، رُوِّعَ وقد خرج من طبيعة الأغنية ودخل في طبيعة الأعراف البشرية النهارية. لقد أحزنه وأربكه وجود دافئ في غرفته المظلمة. أما هي فقد واصلت جلوسَها على أية حال ولم تصدر صوتاً. وجلس هو أيضاً على كرسي قرب النافذة. كان الظلام في كل مكان. وفي الخارج كانت تَهُبُّ ريحٌ في عصفات. لم يكن في وسعه أن يرى شيئاً داخل غرفته، باستثناء خيط الضوء الباهت، الباهت، أسفل الباب. بَيْدَ أنَّه استطاع أن يشعر بوجودها في الظلام. كان شيئاً غريباً أن يشعر بها قريبة منه في الظلام دون أن يرى أية إشارةٍ منها، أو يسمع أيَّ صوت.

كان الاحتكاك بالكائن البشريِّ اليومي الكامن في داخله قد جرحها في حالتها المسحورة. إلاَّ أنها بدأتِ الآن تغوصُ داخل سحرها فيما كانت جالسة هناك في الظلام. وشعر هو أيضاً، في غمرة السكون، بأن العالم يغوص مبتعداً عنه مرة أخرى، مُخَلِّفاً إيَّاهُ من جديد بمفرده، على أرض معتمة، دون أن يحول شيء بينه وبين الفضاء المظلم اللانهائي . لو لا وجودها الآن. الظلمة تنطبق على الظلمة، والأعماق تنطبق على الأعماق. استجابة قريبة منه وغير منظورة. إلاَّ أنه لم يَدْرِ ماذا يتعين عليه أن يفعل. جلس هادئاً وصامتاً، كما كانت هي هادئة وصامتة. وبدتِ الظلمةُ داخل الغرفة حَيَّةً كالدَّم. لم يكن لديه

قدرة على التحرك. وبدت المسافة بينهما مُطْلَقَة.

ثم فجأة، دونما دراية، عَبَرَ الغرفةِ في الظلام مُتَحسِّساً طرف الأريكة. وجلس بجانبها على الأريكة. إلاّ أنه لم يلمسها. ولم تتحرك هي أيضاً. وتدفقتِ الظلمةُ حولهما سميكةً كالدَّم، وبدا كأنَّ الزمن قد تبدد فيها. وجلسا دون كلام، ودون تفكير، مع المسافة الصغيرة الخفية الكائنة بينهما .

ثم، وعلى حين غرة، شعر بأطراف أصابعها تلمس ذراعه، فَشَبَّ فيه لهيبٌ تركه دون رجولة بعدها. كان شيئاً جالساً في اللهب، فاقد الوعي، وقد جلس منتصب القامة كَمَلِكٍ إلهيٍّ مصريّ في التماثيل. وانزلقتْ أطرافُ أصابعها عليه، وانزلقت هي نفسها في فورة صامتة غريبة، وشعر بوجهها على قدميه المضمومتين وكاحليه وقد ضَغَطَتْ يداها على كاحليه. وأحس بجبينها وشعرها على كاحليْهِ، وبوجهها على قدميه، وهناك كانت متشبثة في الظلام، وكأنها كانت في فضاء تحته. وبقي جالساً، منتصب القامة ودون حراك. ثم انحنى إلى الأمام ووضع يده على شعرها. غمغم قائلاً:

– هل تأتين إليَّ ؟؟ هل تأتين إليَّ ؟؟

كان يبدو أن اللهيب الذي غلَّفه راح يؤرجحه بصمت. أعاد قوله :

– هل تأتين إليَّ فعلاً ؟؟؟ ولكن، لا مكانَ لدينا لنذهب إليه.

وأحسَّ بأنَّ قدميه قد تَبَلَّلَتا بدموعها. كان ثمة شيئان اثنان يتنازعان في داخله: الإحساسُ بالعزلة الأبدية، كالفضاءِ، واندفاع اللهيب المظلم الذي سيرميه من عُزلَتِهِ باتجاهها .

كان يفكر أيضاً. كان يفكر في المستقبل. لا مستقبل لديه في العالم: كان يدرك ذلك. لا مستقبل لديه في حياته. حتى لو تابع العيش، فسيكون ذلك نوعاً من التَّحَمُّلِ فحسب. ولكنه كان يشعر بأنَّ الإِرْثَ في الآخرة سوف يكون من نصيبه .

كان يشعر بأنَّ الآخرة تنتمي إليه.

لم يكن في وسعه أن يعطيها المستقبل في العالم. ولا حياة لديه في العالم ليقدمها لها. من الأفضل أن يتابع بمفرده. من الأفضل حتماً أن يتابع بمفرده .

ولكن، ماذا عن الدموع المنسابة على قدميه !.. ووجهها الذي سيواجهه عندما يتركها !.. كلاَّ، كلاّ. كانت الحياة القادمة من نصيبه. كان سيداً للحياة الآخرة، فلماذا يخشى هذه الحياة؟ لماذا لا يأخذ الروح التي قدمتها إليه ؟؟ الآن وإلى الأبد ومن أجل الحياة التي ستأتي عندما يكونا قد ماتا كلاهما. فليأخذها إلى العالم السفلي. فليأخذها إلى حادِس (*) المظلمة معه، مثل فرانسيسكا وباولو. وليضمّها بشدة في الجحيم ملكةً للعالم السفلي، وهو نفسه سيد العالم السفلي. سيد الحياة التي ستأتي. أب الروح التي ستأتي بعد ذلك. قال لها برقة :

– إصغي !.. أنتِ الآن مُلكِي. أنتِ لي في الظلام. وعندما تموتين تصبحين لي. ولكنك لستِ لي في النهار،، لأنني لا حول ولا قوة لي في النهار. في الليل، وفي الظلام، وفي الموت، أنتِ لي. وهذا ما سيكون عليه الحال إلى الأبد.

(*) حادس: مثوى الأموات في الميثولوجيا الإغريقية. المترجم.

لا يهمُّ إنْ تَحَتَّمَ عليَّ أن أتركَكِ. فسآتي مرة أخرى من حين إلى آخر. أنتِ لي في الظلام. ولكنّني لا أستطيع أنْ أطالبَ بكِ في النهار. لا قوة لي في النهار، ولا مكان لديّ. لذا تَذَكَّرِي: عندما يأتي الظلام، سأكون دائماً في ظلامك. وما دمتُ حيّاً فسآتي، من حين إلى آخر، لأجدَكِ حين يكون في ميسوري ذلك، وحين لا أكون أسيراً. ولكنْ، سوف يتحتّمُ عليَّ أنْ أرحلَ عمّا قريب. لذا، لا تنسي، أنت زوجةُ الخنفساء المُنَقَّطَة في الليل عندما تكونين على قيد الحياة، وحتى عندما تموتين.

عندما أعادها إلى غرفتها فيما بعد، رأى أن الباب كان لا يزال مُوَارباً. غمغم قائلاً:

- لا ينبغي أن تتركي ضوءاً في غرفتك.

في الصباح كانت تحيط به نظرة نائية غريبة. كان أكثر هدوءاً من ذي قبل، وبدا غايةً في التنائي. نامت دافني في وقت متأخر. كان ينتابها إحساسٌ غريبٌ، وكأنها انسلَّتْ خارجةً من همومها جميعاً. لم تعد تكترث، ولم تعد تحزن، ولم تعد تغتاظ بعد الآن. لقد ولَّى عنها كلُّ ذلك. كانت تحس أنَّ في مقدورها أنْ تنامَ، وتنامَ، وتنامَ إلى الأبد. كان وجهها أيضاً ساكناً جداً، وقد رانتْ عليه سيماءُ عُذْرِيّةٍ مرهَفة لم تعرفها من قبل. كانت أفروديت دائماً، أفروديت الخجول. وكانت عيناها الخضراوان المُزْرَقّتان مقاوِمَتَينِ كجوهرتينْ حَيَّتَينْ بطيئتين. وقد تفتّحتا الآن من برعمِ الزهرة القاسي، وكان فيهما روعةُ وسكونُ ليلةٍ هادئة.

وقد لاحظ بازل ذلك في الحال. قال:

- لقد تغيَّرتِ يا دافني. بمَ تفكرين؟؟؟

قالت وهي تنظر إليه بصدق:

- لم أكن أفكر.

- ماذا كنتِ تفعلين إذنْ؟؟؟

- ماذا يفعل المرء عندما لا يفكر؟؟ لا تَدعْني أفكر في الأمر طويلاً يا بازل.

- لا تفكِّري قيد شعرة إنْ كنتِ لا تريدين ذلك.

ولكنَّها حَيَّرَتْه. وبدا أنَّ وخزةَ حبه المبحرِ في النشوة لها قد غادرته. إلاَّ أنّه لم يكن يعلم ماذا يفعل سوى ممارسة الحب معها. وأمستْ هي شاحبة جداً. كانت تستسلم له وقد طأطأتْ رأسها، إلاَّ أنها كانت تنظر إليه بخوف، بحزن، وبمعاناةحقيقية. كان في مقدوره أنْ يُحِسَّ بصدرها وهو يجيش، وكان يعرف أنها كانت تبكي. ولكنْ لم يكن ثمة دموع على وجهها. كانت شاحبةً شحوبَ الموتى فحسب . وكانت عيناها مُسْبَلَتَيْنْ. سألها:

- هل تتألَّمين؟؟؟

ففتحت عينيها وقالت خشية أن تكون قد أزعجته:

- كَلاَّ، كلاَّ.

لم تكن تريد أن تزعجه.

كان في حيرة من أمره. كان حبه المستميت الغريب لها قدمُنِيَ بصَدْع. كان خارج الاعتبار.

كان يراقبها حين تكون بصحبة الكونت. وكانت تبدو عندئذ

غايةً في الخنوع - وعلى نحو عذروايٍّ بالغ - ومختلفةً جدّاً عمَّا كان يعرفها. كانت ساكنة تماماً، كفتاة عذراء. وكانت هذه النوعية الهادئة السليمة من العذرية هي التي سَبَّبَتْ له الحيرةَ القصوى، وحيَّرتْ أحاسيسه وأفكاره. وأصبح فجأة يخجل من ممارسة الحب معها. ولأنه أصبح خجولاً قال لها بينما كان يقف في غرفتها تلك الليلة :

- دافني، هل أنتِ على علاقة حب مع الكونت ؟؟؟

كان يقف باضطراب قرب منضدة الزينة. كانت تجلس على كرسي خفيض قرب النار الصغيرة المتلاشية. رفعت بصرها إليه بعينين واسعتينْ بطيئتينْ. وطفقتْ تراقبه بعينين مُتَّسِعَتَيْنْ عريضتينْ رقيقتينْ دون أن تنبس ببنت شفة. ما الذي جعله يشعر بالارتباك الكامل ؟؟؟ أشاح بوجهه جانباً، بعيداً عن عينيها الواسعتينْ الرقيقتينْ. قال :

- اعذريني يا عزيزتي. لم أقصد طرح مثل هذا السؤال. لا تكترثي به البتَّة.

وَخَطَا مبتعداً وتناول كتاباً. أخفضتْ رأسها وراحت تحدِّقُ في النار بهدوء، ودونما صوت. ثم نظر إليها مرة أخرى، إلى شعرها اللامع الذي كانت الخادمة قد ضفرتْهُ من أجل الليل. كانت ضفائرهُ تنسدل فوق دثارها الناعم القرمزيّ. ورقّ قلبُه لها عندما رآها تجلس هناك. كانت تبدو كأختٍ له. كانت إثارةُ الرغبة قد غادَرَتْه، وبدا الآن أنه يرى ويحس بصدق للمرة الأولى في حياته. كانت بالنسبة إليه كأختٍ عزيزة عزيزة. أحسَّ أنها كانت أختَه بالدم، وأقربَ بكثير إليه ممَّا تستطيع أيَّةُ امرأةٍ أن تكون، على حدِّ تَصَوُّرِهِ. قريبة جداً، وعزيزة جداً، وقد وَلَّتِ والمَيْلُ الجنسي. لم يكن يريد الجنسَ، وما

أراده قَطّ. كان هذا الشعور النقي الجديد أروعَ بكثير. ذهب ووقف إلى جانبها . قال:

- سامحيني يا حبيبتي لأنني سألتك.

رفعت بصرها إليه بعينيها الواسعتين دون أن تنبس ببنت شفة. كان وجهه طيِّباً وجميلاً. واغرورقتْ بالدموع . قالت بحزن:

- من حَقِّكَ أن تسألني.

قال:

- كلاّ. كلاّ يا حبيبتي. ليس من حقي أن أسألك. دافنيَّ!.. دافني !.. حبيبتي !.. سيكون الأمر بيننا كما تتمنين. أليس كذلك ؟؟ هل سيكون كما تتمنين ؟؟؟

قالت بحزن :

- أنت الزوج يا بازل .

- أجل يا حبيبتي، ولكنْ ...

وركع على ركبتيه بجانبها وقال :

- ربما تغيَّرَ فينا يا حبيبتي. أشعر وكأنني لا ينبغي أن ألمسكِ مرة أخرى أبداً. كأنني لم أردْ قطّ أن ألمسكِ بتلك الطريقة. أشعر أنها كانت خطأ يا حبيبتي. أخبريني فِيمَ تفكرين.

- لا تغضبْ مني يا بازل .

- إنه ليس غضباً. إنه حب نقي يا حبيبتي. إنه لكذلك.

قالت :

- لا تَدَعْ أيّاً مِنّا يقترب من الآخر أكثر من هذا الحدِّ يا بازل.

جسديّاً..... هل يمكن ذلك؟؟؟ ولا تغضب مني. هل تفعل ذلك؟؟؟

قال:

- عجباً. كنتُ أنا نفسي أعتقد أن الجزء الجنسيَّ كان غلطة. أُفَضِّلُ أن أحبَّكِ كما أُحب الآن. أعرفُ أن هذا هو الحب الحقيقي. كان الحب الآخر قد أُثِيرَ قليلاً. أعرفُ أنني أحبكِ الآن يا حبيبتي: وأنا الآن حُرٌّ من ذلك الحب الآخر. ولكنْ، ماذا سيحدث إذا فاجأني ذلك الحب الآخر يا دافني؟؟

قالت بهدوء:

- أنا دائماً زوجتُكَ. أنا دائماً زوجتكَ. وأريد دائماً أن أطيعكَ يا بازل، فيما تتمنى.

- أعطيني يدكِ يا عزيزتي.

أعطته يدها، إلاَّ أنَّ النظرةَ الماثلةَ في عينيها حَذَّرَتْهُ وأرعبتْه في الوقت نفسه. فَقَبَّلَ يَدَها وتركَها.

كان الكونت هو الذي تنتمي إليه. كان هذا الأمر قد حَسَمَ نفسه ضارباً جذوره في أعماق روحها. إذا لم تكن قد استطاعت أن تتزوجه وتصبح زوجته في العالم، فإن هذا ما حدث لها إلى الأبد على الرغم من ذلك. لم يعد في وسعها أن تَشُكَّ في ذلك بعد الآن. كان الشكُّ قد وَلَّى عنها. وغريبٌ كم أصبحتْ مختلفة: هدوء جديد غريب. وكانت الأيام الأخيرة تمضي. سيرحل، دايونيس: هو والوجه النائي الساكن، الرجل الذي كانت تنتمي إليه في الظلمة، وفي النور، إلى الأبد. سيرحل بعيداً. قال أن هذا سيحدث ولا بُدّ. وأذْعَنَتْ لِلأمر. وكان الأسى في داخلها عميقاً، عميقاً. يتحتَّمُ عليهِ أن يرحل. ليس في

مقدور حياته وحياتها أن يكونا حياة واحدة في زمن هذا العالم. وحتى في ألمها المُبَرِّحِ كانت تعرف أن الأمر هكذا. كانت تعلم أنه على صواب. كانَ بالنسبة إليها معصوماً عن الخطأ. لقد نطق بلسانِ أعمقِ روحِ في داخلها. لم تنظر إليه قَطّ كعشيق. عندما كانت تقابله، كانت تراهُ الضابطَ الصغيرَ، أسيراً، هادئاً، لا يطالب بشيء من العالم بِرِمَّتِهِ.

وعندما كانت تذهب إليه كحبيبته، كزوجته، كان الظلام يُخَيِّمُ دائماً. كانت تعرف صوته واتصاله في الظلام فحسب. كان يقول لها: «زوجتي في الظلام». وكانت تصدقه في هذا الكلامِ أيضاً. ما كانت لتكذِّبه، كلاًّ، مهما حدث: خشية أن تخسر، إذا كَذَّبَتْهُ، كنوزَ الجنةِوالسكونِ المعتمةَ التي كانت تحتفظ بها في صدرها، حتى عندما كان يعصرُ قلبَها ألمُ المعرفةِ المبرّحُ بأنه سيرحل.

كلاّ. لقد اكتشفتْ هذا الشيء الرائع بعد أن كانت قد سمعته يغني: كانت قد انهارت فجأة مبتعدة عن ذاتها القديمة، داخل هذا الظلام، هذه الطمأنينة، هذا السكون الذي كان يتدفَّقُ في روحها كنهر مظلم زاخر على نحو أبديّ. كانت قد تخلصت بالنوم من ليل أيامها الأبيض. وكان بازل، وياللروعة، قد تغير فوراً على وجه التقريب. كانت تشعر بالخوف منه، خشيةَ أن يتغيَّرَ مرة أخرى ويعودَ إلى ما كان عليه. ولسوف تخشاه دائماً. ولكنها في أعماقها كانت تخشى فحسب على حبِّها هذا للكونت: هذا الحب المظلم الأبديّ، الذي كان يتدفَّقُ كنهر زاخر إلى الأبد في داخلها. آه، فَلْتُحَافِظْ على هذا من الانقطاع. كانت هادئة تماماً في أعماقها. كان في مقدورها أن تجلس بمنتهى الهدوء، وتشعر بالنهار وهو يتحول ببطء وأناقة إلى ليل. ولم تكن تريد شيئاً، ولم يكن ينقصها شيء. ولَيْتَ دايونيس لم

يكن في حاجة إلى الذهاب!.. لَيْتَه لم يكن في حاجة إلى الرحيل!..

لكنّه قال لها في الصباح الأخير:

- لا تنسيني. اذكريني دائماً. إنني أترك روحي في يديكِ وفي رحمك. ليس في مقدور شيء أن يفصلنا أبداً، إلاّ إذا خدعَ كلٌ مِنّا الآخر. إذا كان يتحتم عليكِ أن تمنحي نفسكِ لزوجكِ، فامنحيها، وأطيعيه. إذا كنتِ صادقة معي داخليّاً، صادقة داخلياً، فلن يؤذينا. إنه كريم، فكوني كريمة معه. ولا تَكُفّي عن الإيمان بي. لأنني حتى في الجانب الآخر من الموت سأكون في انتظارك. سأكون ملكاً في «حادس» عندما أموت. وستكونين إلى جانبي. لن تفارقيني أبداً في الحياة الآخرة. لذا لا تخافي في الحياة. لاتخافي. إذا كان يتحتم عليكِ أنْ تذرفي دموعاً فاذرفيها. واعلمي في أعمقِ أعماقكِ أنني سآتي مرة أخرى، وأنني سآخذكِ إلى الأبد؛ لذا، كوني هادئة في أعمقِ أعماقكِ، كوني هادئةً طالما أنكِ زوجةُ الخنفساء المُنَقَّطَة.

وضحك وهو يفارقها ضحكته الجميلة التي لا تعرف الخوف. ولكنَّ العينين اللّتينْ تَبِعَتَاهُ كانتا عينينْ غريبتينْ.

واستقلَّ السيارةَ مع بازل عائداً إلى «فوينيش هول».

قال بازل:

- أعتقد أن دافني سوف تفتقدك.

ولم يُجِبِ الكونت لِعِدَّةِ لحظات. ثم قال:

- حسناً. إذا افْتَقَدَتْني فلن يكونَ ثمة مرارة في ذلك.

ابتسم بازل قائلاً:

- هل أنت متأكد؟

ابتسم الكونت قائلاً:

- أجل، إذا كنَّا متأكدين من أيَّ شيء.

- لقد تغيَّرتْ، أليس كذلك؟؟؟

- هل تَغَيَّرتْ؟؟؟

- أجل لقد تغيَّرتْ تماماً منذ مجيئكَ أيها الكونت.

- لا تبدو لي مختلفة كثيراً عن فتاة السابعة عشرة التي كنتُ أعرفها.

- كلا. ربما لم تكن كذلك. لم أكن أعرفها عندئذ. إلاَّ أنها مختلفةٌ تماماً عن الزوجة التي عرفتُها.

- هل هو اختلافٌ مؤسف؟؟

- حسناً. كلاً. ليس مؤسفاً إلى القدر الذي وصلتُ إليه. إنها أكثر هدوءاً في دخيلة نفسها. هل تعرف أيها الكونت أنَّ شيئاً ما مِنِّي قد مات في الحرب. أشعرُ أنني لو جلستُ وفكرتُ في الأمر بِرِمَّتِهِ لا ستغرق مني ذلك أبديةً كاملة.

- آمل أن تفكر في الأمر بما يسبب لكَ الارتياح أيها الرائد.

- أجل، آمل ذلك أيضاً. ولكنْ، تلك هي الحالة التي تَرَكَتْني عليها. شاعراً وكأنني في حاجة إلى أبدية كي أطيلَ التفكير في الأمر برمَّتِهِ كما تعرف. دونما حاجة إلى العمل، أو حتى الحب، في الواقع. أعتقد أن الحب عمل.

قال الكونت:

- عمل مجهد.

– إنه على ذلك النحو تماماً. إنني أعرف حقاً كيف أحس. إنَّ كلَّ ما أطلبه من الحياة هو أن تعفيني من القيام بآيٍّ مجهودٍ عملٍ آخرَ، من أيٍّ نوع كان، حتى الحب. ثم أن أحقِّقَ نفسي، وذلك عن طريق التفكير عبر الأبدية. طبعاً أنا لا أبالي بالعمل، العمل اليدويّ. وذلك في حَدِّ ذاتِهِ شكلٌ من أشكال التَبَطُّل.

قال الكونت:

– ليس في مقدور الإنسان أن يكون سعيداً إلاً إذا اتَّبَعَ أعمقَ احتياجاتِه.

قال بازل:

– بالضبط. لن أَسُنَّ قانوناً لأيٍّ شخص. ولا حتى لنفسي. وسوف أعيش يومي.

قال الكونت:

– عندئذ ستكون سعيداً بطريقتكَ الخاصة. أجد أنه من الصعب جداً أن أتجنَّبَ وضع قانونٍ لنفسي. وَحْدَهَا فكرة الموت والحياة الآخرة تنقذني من القيام بذلك بعد الآن.

قال بازل:

– مثلما تساعدني فكرة الأبدية. أعتقد أنها تُفْضِي إلى النتيجةِ نفسِها.